فيـــض الوهـاب

فى بيان أهل الحق ومن ضل عن الصواب

بقـــلم

علامة عصره ووحيد دهره

الشيخ عبد ربه بن سليمان بن محمد بن سليمان

« الشهير بالقليوبى »

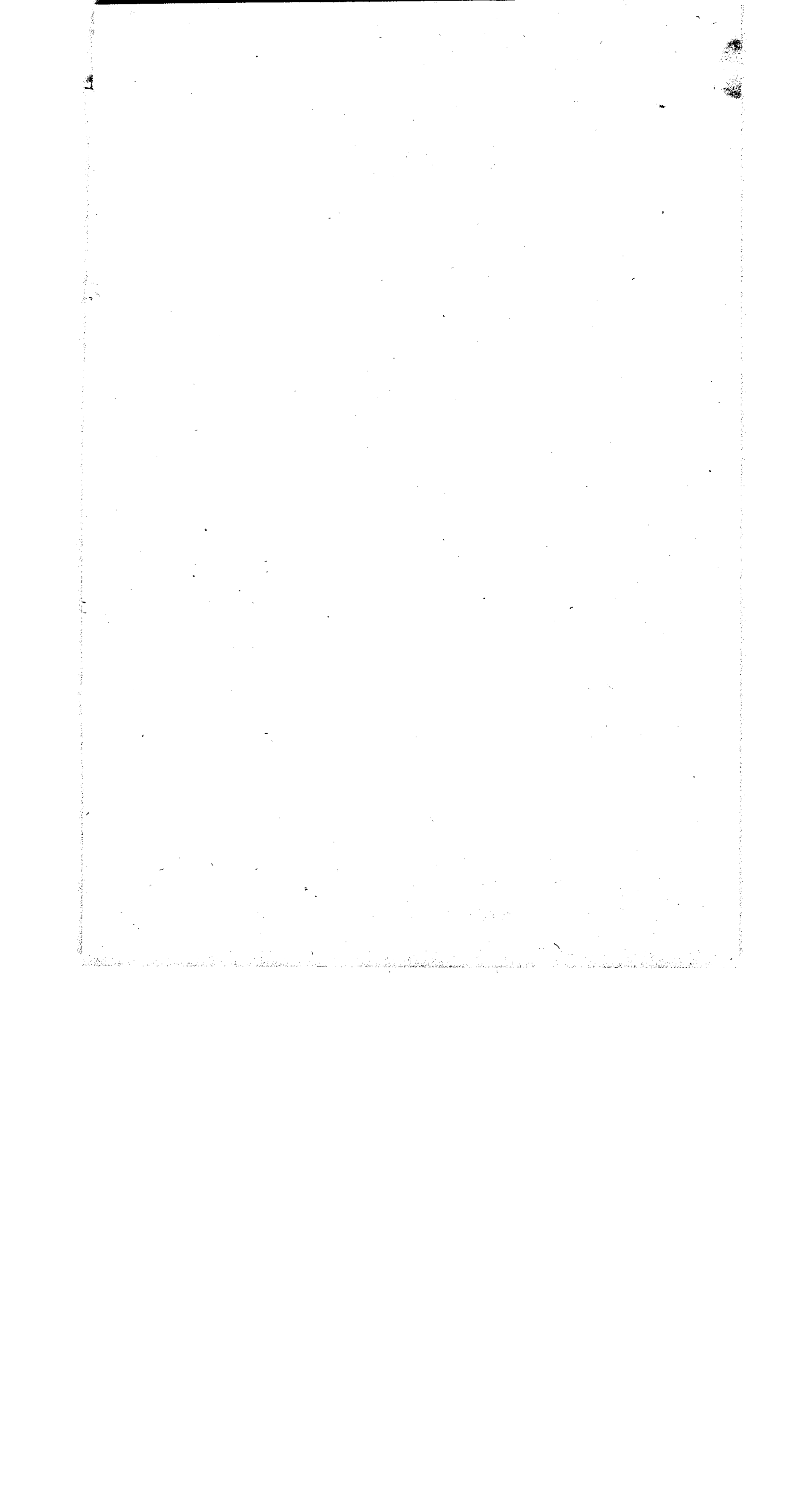
أحد علماء الأزهر الأعلام ، الخادم للسنة المطهرة
الذى تنتهى إليه أسانيد السنة جمعاء فى هذا العصر
والذى لم يسبقه أحد فى شرح جامع الأصول
لأحاديث الرســول ﷺ لابن الأثير

الجزء الأول

سنة ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٧ م

مكتبة القاهرة

لصاحبها : على يوسف سليمان
شارع الصنادقية - ميدان الأزهر بمصر
ص . ب ٩٤٦ - تليفون ٩٠٥٩٠٩



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

سبحانك اللهم وجب وجود ذاتك متصفة بالحياة والعلم وجميع صفاتك . فلا أول لذاتك ولا لصفاتك وأسمائك . أنت الأول بلا ابتداء . والآخر بلا انتهاء . أنت الصمد المنزه عن الكفء والوالد والمولود . الموصوف بالمخالفة لكل ما فى الوجود . ابدعت الكائنات بحكمتك . وأنشأت الموجودات أنواعا بقدرتك ، لحكم خصصت بإرادتك . أنت المنفرد بالإبداع والإيجاد . عجزت الأفهام عن ادراك كنهك وأبعدت غاية الإبعاد . نصبت آيات عظمتك البينات . وعجائب كبريائك فى الأرضين والسموات . فنطق الجماد ببيان صنعك البديع . ورفع النبات والحيوان أعلام فضلك الرفيع . فالعوالم بجزئياتها تنادى بأنك المعبود . بما طبعت عليها وفيها من آثار صنعك المشهود . فسبّح بالفطرة بحمدك . وقدّس بالتكوين لمجدك .

لذاتك ثبت كل أنواع الكمال . وبعده لك فيوض من الاحسان والأفضال . فكل ما فى الوجود من ذلك الفيض فوق التمام . فصار الكل من فضل الله ذى الفضل والأنعام — فسبحانك من إله غنى حميد . لا إله غيرك ولا معبود سواك .

وصلاةً وسلاما على مصدر التجليات الألهية . ونقطة باء البداية الأصلية . ومهبط الأسرار الرحمانية . السابق فى الوجود نوره . ورحمة العالمين ظهوره . أبرزته رحمة شاملة لوجودك الذى فتقت به رتق

الوجود وخصصته بالمقام المحمود . وأقسمت بحياته فى كتابك المشهود . وأخذت على خيرة خلقك لحضرته قبل ظهوره المواثيق والعهود . وذكرت نعته وأصحابه فى الكتب المقدسة بأفضل مقامات النعوت وشققت له من أسمك المحمود فهو سرك الجامع الدال عليك . وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك . وهو السر السارى . وماء جوهر الجوهرية الجارى . الذى أحييت به الموجودات . من جماد وحيوان ونبات . روح الأرواح ، وقلب القلوب ، وحياة الأشباح . أكرم خلقك على الإطلاق . وأقربهم لك زلفى عند التلاق فكان أول الكائنات . وخاتم أفضل الموجودات . فاجعل اللهم دوام صلواتك التامات . وأزكى تحياتك العامات . وأشرف تسليماتك المباركات عليه بقدر كمالك وجلالك . صلاة تليق بك منك إليه . فأنت أهل لذلك . وكما هو أهله . وعلى آله وصحبه ومن اتبعه بإحسان أبد الآبدين . وارزقنا اللهم حبك وحبه على الدوام . وأنعم علينا بدوام عطفه علينا . حتى يكون شهوده لنا ومشاهدتنا له فى الدنيا والآخرة فى كل لحظة وآن . أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين.

أما بعد : فيقول العبد الضعيف الفقير إلى الله الغنى اللطيف . المحدث بنعمة ربه المنان . عبد ربه بن سليمان بن محمد بن سليمان :

أنى رأيت حال الفرق الضالة المارقة من الدين ، والخارجة عن اجماع خيار الأمة من علماء المسلمين . قد انتشر فى عصرنا الآن . وكاد أن يطغى على البرآء من البسطاء وضعفاء الإيمان . من المتعلمين وغير المتعلمين . تلك الفرق التى شاع ذكرها من القاديانية ، والاسماعيلية ، والبهائية وخاصة الوهابية . وكل ينشر لمبدئه الفاسد ويدعو لعقيدته الزائفة الضالة بالمال

والجاه وبالسعي وراء ذلك كله بكافة الطرق الشيطانية والحيل الأبليسية .
ومن أعظم هذه الفرق الزائفة خطورة على المسلمين . الوهابية . راجع كتاب (سعادة الدارين) للسمنودى إذ لدعاة لهم ممن يدعون أنفسهم لأهل العلم زورا وبهتانا . وفى الواقع ليس لهم أى صلة يتصلون بها فى أصل أصول الدين الإسلامى الذى يدعون التمسك بمبادئه . الكتاب . والسنة . إذ عمدة الدعاة للدين عندنا : الأسناد . والسند : هو التلقى عن من له سند متصل برسول الله ﷺ . ومن لاسند له لايعبأ به وهؤلاء لاسند لهم لا إلى القرآن العزيز . ولا إلى السنة المطهرة . بل لايحسنون قراءة الفاتحة بالحروف الموضوعة بالوضع الإلهى لها الذى هو من جملة ما حفظ الله به قرآنه . بل يقرأونه كقراءة العامة من غير مراعاة للفرق بين حروف القرآن وغيرها من ألفاظ العامة . وأيضا لاسند لهم فى السنة ولو إلى الأربعين النووية .

فلست أدرى كيف يلقبون أنفسهم بأنصار السنة والدعوة بها ؟ والسنة تبرأ منهم ومن أشكالهم فحال هؤلاء كحال من يعرف القراءة والكتابة لاغير ، فيقرأ فى الكتاب ويحاضر بالمكتوب وهو لايعرف أسرار الكتاب ولا المكتوب .

ولايخفى عليك حال من يعرف منهم أساليب الانشاء كالكتبة العامة ، فتراه إذا افتتح أن يكتب موضوعا أو يقول مقالا تعجب لألفاظه ولحن قوله فهم من مصداق قوله تعالى :

(فلتعرفنهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) (وإذا رأيتهم تعجبك

أجسامهم وأن يقولوا تسمع لقولهم) وخاصة من نال منهم شهادة من الأزهر الشريف ، والله يعلم بحال تلك الشهادة . والطامة الكبرى والبلوى العظمى منهم على البسطاء والضعفاء من المسلمين . إذا كان هذا الطاغية له مركز بارز أو وظيفة ظاهرة من قبل الأزهر فى الدين ، فإنه يكون قائداً فى الضلالة عظيما . ولا يدرون أن هذا يجر بهم إلى السوء لمخالفتهم لاجماع المسلمين ، لأن عقيدتهم الضالة المضلة يقتفون فيها أثر أسلافهم الضالين المضلين ممن شيدوهم ألقاب عظيمة توهم الضعفاء فى العلم والدين والايمان بأنهم أئمة فضلاء بقولهم : تقى الدين شيخ الإسلام الامام . اللهم إلا أن يكون كما قلت فيهم :

أمام فى الضـــلال له رجال يعينون الامام على الضلال

وقال ابن يسار :

همو ظلموه حين سموه سيداً كما ظلم الناس الغراب بأعورا

وأيضا بأن مبادئهم الفاسدة ، وعقائدهم الزائفة كانت أكثر جمعا فى ظاهر القرآن من غيرها من عقائد الضالين . وشبه المارقين ممن ينسبون أنفسهم إلى الإسلام والمسلمين . بل يعتقدون أنهم على الحق المبين والله يشهد أنهم لكاذبون لمفارقتهم للسواد الأعظم من عقلاء المسلمين وهم العلماء العاملون .

ولا تنسى أيضا أن سبب انتشار دعوتهم الآن فى كثير من الأنحاء لسبب تولية أحد ضعفاء الإيمان برياسة دينية ممن استبدلوا فيها بالدين الدرهم والدينار ذلك الذى فيه الاستعداد لتلك المبادىء الخاطئة فاقتدى به كثير من ضعفاء الإيمان الذين كان يقربهم من مجلسه ، ويرفع من شأنهم حتى

اشرأبت أعناقهم للدعوة إلى مبادئه . فقطع الله رأسهم غيرة على دينه ، وعلى المقربين من عباده الصلحاء .

ولكن بعد أن زرع بذور الفساد فى أرض صالحة لها فنبتت وترعرعت فى قلوب أولئك الذين لاخلاف لهم فى الدنيا والآخرة لحكم يعلمها الحكيم العليم .

وبتوفيقه تعالى : جمعت ما يبطل أدلتهم ويقطع حجتهم فى هذا الكتاب الذى سميته ، فيض الوهاب فى بيان أهل الحق ومن ضل عن الصواب ، حتى لاتقوم لهم قائمة بعدها أن شاء الله تعالى من الأدلة العقلية المطابقة للأدلة النقلية . الكتاب . السنة . الإجماع . القياس . الاستنباط للرد عليهم فى جميع ضلالاتهم من كتبهم التى كتبوها بأيديهم ، وضللوا بها بسطاء الإيمان من المسلمين . وهى الآن مطبوعة مع بيان زمن طبعها ، ولم أجىء بشىء من أقوال الرادين عليهم المعاصرين لهم مع الثقة بهم ، وعنيت بالرد عليهم قمعا لأول مؤسس للضلالة حتى إذا ما انقض ، انهار جميع مابنى عليه ، ومن اشتهرت به مذاهبهم الآن . وكذا كل من كان على تلك المبادىء الخاطئة . (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

اعتـــذار

إليك اعتذارى سيدى القارىء فى تعبيرى كثيرا بلفظ الضالين والمارقين والمفارقين وغير ذلك من الألفاظ التى ظاهرها القدح والذم ولا أقصد ذلك .

إنما غرضى لفت نظر عباد الله تعالى لما أوجبه تعالى عليهم حيث بين لهم

أنه تعالى هو الحق وأنه واحد ، ودينه الذى شرعه لجميع عباده من آدم إلى آخر الدنيا واحد ، ورسله الذين أرسلهم إليهم بمقتضى ما اشتملت عليه دعوتهم واحد ، وبين تعالى لعباده ، أن هذا هو الحق ، ومن اتبعه كان على الحق ، وما عداه هو الضلال . (فماذا بعد الحق إلا الضلال) .

وبين سبحانه وتعالى فرق عباده ووصفهم بما يميز به بعضهم عن بعض من المؤمنين والكافرين والمنافقين .

فقد امتثلت فيه أمره تعالى . وأمر رسوله ﷺ فى الحديث المروى عند مسلم (أترعون أن تذكروا الفاجر بما فيه أذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس) .

وقد حث أفاضل علماء الأمة الإسلامية المجاهدين ضد المارقين المكابرين فى الحق بقولهم :

من الدين كشف الستر عن كل كاذب
وعن كل بدعى أتى بالعجائب
ولولا رجال مؤمنون لهدمت
صوامع دين الله من كل جانب

وما غرضى إلا الأدلاء بالأدلة العقلية التى بعضها لم يسبقنى فيه أحد ، وبيان سر وجه ، وحكمة اجماع المسلمين على الأمر الذى لم يكن فى زمنه ﷺ وأجمع العلماء عليه أنه من الدين ، ليستريح المؤمن إلى عمله ويدفع به كيد المارقين ، وهو شأن أهل الحق فى كل عصر إذ ما من واحد منهم إلا وقد قيضه الله تعالى للقيام فى وجوههم . كاشفا عن حالهم واصفاً لهم بأنهم ضالون (راجع كتب ومجامع تقى الدين السبكى فقد كشف عن حالهم) .

وابن السبكى وابن حجر ومن على شاكلتهم فى كل عصر . وها هو الشيخ

سليمان بن عبد الوهاب شقيق محمد بن عبد الوهاب . قد ألف كتابا سماه « بالصواعق الالهية فى الرد على الوهابية » وهو مطبوع الآن بمصر ، رد فيه على أخيه محمد بن عبد الوهاب زعيم الوهابية فى مواجهته فى عصره .

ولا أذهب بك بعيدا ، فها هو سيدى أحمد الدرديرى الذى أطبق علماء الأمة الإسلامية أنه مالك الصغير . قال فى كتابيه الشرح الكبير والشرح الصغير فى أول كتاب الطلاق فيهما : « والطلاق بالثلاث يقع ثلاثا خلاف لابن تيمية فإنه ضال مضل خرق الإجماع وسلك مسالك الإبتداع » .

وقد قام فضيلة العالم الكبير الشيخ محمد عليش فريد عصره بسعيه بنفسه فى هذا الميدان وكذا الشيخ يوسف الشرنبخومى من أفاضل علماء الأزهر ، وها هو فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى المشهور مفتى الديار المصرية سابقاً والشيخ محمد حسن مخلوف وكيل مشيخة الأزهر سابقاً فى رسالتيهما المطبوعتين مع الصواعق الألهية سالفة الذكر . وفضيلة الشيخ يوسف الدجوى من جماعة هيئة كبار العلماء بالأزهر قام بدوره برسالته المسماة : «صواعق من نار» .

وهكذا سنة الله تعالى فى خلقه كلما ظهر منهم شيطان قيض الله له شهابا ثاقبا ما بقيت الدنيا ، (ولن تجد لسنة الله تحويلا) ولو شئت أن أذكر لك من مبدأ الضالين والرادين عليهم فى كل عصر لضاق بنا المقام . ولا تنس أن لكل نمروذ إبراهيم ، ولكل فرعون موسى ، ولكل ضال محمدى .

وإليك ما اطلعت عليه فى طبقات الحنابلة : أن ابن كثير العماد حصل بينه وبين ابن قيم الجوزية مناظرة . فقال ابن قيم الجوزية لابن كثير : أنت تكرهنى لأنى أشعرى ؟

فقال ابن كثير : لو كنت شعرا من ساسك إلى راسك . ما صدق أحد منه المسلمين أنك أشعرى ، بعد أن كنت تلميذا لابن تيمية ؟

وأرجو اعفائى من المؤاخذة بكثرة الكلام والتكرار فيه ، لأنى اقتديت برب العالمين فى كتابه العزيز ، الذى بعضه يوضح بعضا وبحضرته ﷺ الذى كان يقول الحديث ثلاثا ليؤخذ عنه ، ويحفظ منه ، وإن اختلفت ألفاظه كالقرآن ، ولكن المعنى متحد . وبالبخارى الذى مكرره كثير ، واشتهر قولهم عنه :

قالوا لمسلم فضل قلت البخارى أعلى
قالوا المكرر فيه قلت المكرر أحلى

فكثرة كلامى أن شاء الله تعالى لا تخلو عن كبير فائدة ، كيف لا وقد أجمع أفاضل علماء الأمة الإسلامية ، على أن مقاصد المؤلفين تنحصر فى سبعة أشياء :

(١) ابدع شىء لم يسبق إليه . (٢) وشرح مغلق . (٣) وتصحيح مخطأ .
(٤) وترتيب منثور . (٥) وجمع مفرق . (٦) وتقصير مطول .
(٧) وتتميم ناقص .

فبحمد الله تعالى كتابنا هذا يشتمل على هذه المقاصد كما يشهد به المطلع المصف السالم من شائبة الحسد مع العفو عن زلة أو هفوة كما قال الأفاضل . لكل عالم هفوة . كما لكل جواد كبوة ، ولقد أحسن من قال :

ان الكريم إذا رأى عيبا ستر أما اللئيم إذا رأى أفشى الخبر
ليس اللئيم يضر إلا نفسه والله يغفر للكريم كما غفر

ولكن ما قل سقطه وحسن نمطه ، كان أرجى فى القبول خاصة عند ذوى العقول .

نسأل الله تعالى أن ينفع به كل محب للنبى ﷺ وآل بيته الطيبين الطاهرين المباركين ، وأن يجعلنا من الموفقين الممتثلين لقوله ﷺ (أحبوا

الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا آل بيتى لحبى)
اللهم أدم علينا ذلك . وأمتنا على ذلك . وأحينا على ذلك فإنك ولى ذلك آمين .

وأعود فأقول أن أكبر حامل لى على تأليف هذا الكتاب إنما هو أثبات الأدلة العقلية المطابقة للأدلة النقلية . التى لا يجد المفارق للجماعة عنها محيصا . فتحمله على الرجوع إلى الحق إن شاء الله هدايته . وتوفيقه . وإلا فقد قال تعالى (فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) .

ومن أهم أغراضى أيضا . لفت نظر المخالف للأجماع إلى بيان أصل الحكم فى المستحدثات التى لم تكن فى زمن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين . وأن أصله فى كتاب رب العالمين وبيان سنة سيد المرسلين . وما أجمع خيار الأمة الإسلامية على جواز العمل به إلا لذلك الأصل والبيان . غير أن الله تعالى لم يوجد من يجرى على أيديهم هذه المستحدثات إلا فى الأزمنة الآتية فتحدث وقتئذ قال تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) ليكون القرآن أصلا لكل محدث فى كل زمان ، يرجع إليه فيه . إذ أن منزله هو الخالق للمحدثين والمحدثات فيكون من مصداق قوله تعالى (تبيانا لكل شىء) (وتفصيل كل شىء) (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

ولعلى أن أدرج مع من دخلوا تحت مصداق قوله ﷺ لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه (لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حُمر النعم) رواه الشيخان .

لأن الرجال على ما قرره أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فيما يروى عنه (الرجال أربع : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى . وهذا عالم فاسألوه . ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى وهذا ناس

فذكروه . ورجل لايدرى ويدرى أنه لايدرى . وهذا جاهل فعلموه . ورجل لايدرى ولايدرى أنه لايدرى وهذا فاسق خطر فاحذروه) .

فالرابع هذا هو الذى جهل أنه جاهل ، وهذا هو وجه خطورته على العالم وهذا هو الذى قال فيه العقلاء : جاهل جهلا مركبا ، إذ الجهل ينقسم إلى قسمين : جهل بسيط وهو الذى يتعلم صاحبه بالتعلم .

وجهل مركب وهو الذى صاحبه لايقبل المعلم لأنه جهل أنه جاهل كما قيل :

قال حمار الحكيم يوما لو أنصف الدهر كنت أركب
لأنى جاهل بسيط وصاحبى جاهل مركب

وقد أبان الحق عز وجل فى كتابه العزيز لعباده على لسان حضرته ﷺ فى قوله تعالى : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) أى من عباده من يفهم بالإشارة . ومنهم من يفهم بالعبارة ومنهم من لايفهم لابالإشارة ولابالعبارة ، بل بالقامه حجرا وصدق الله العظيم حيث قال : (أن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

فعرفت أن الناس على ثلاثة أقسام ، كما بين الحق عز وجل فى هذه الآية الكريمة وكما حدث من أسند الله تعالى إليه البيان والتبين ﷺ فى الحديث المروى عن البخارى ومسلم عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلا فكذلك مثل من فقه فى دين الله عز وجل ونفعه بما بعثنى الله به فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

وصدق الله العظيم حيث قال : (فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) وقال عز شأنه (وأن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) .

لفت نظـــر

لايخفى على كل ذى عقل راجح . أن الله تعالى لمقتضى كماله ، جعل الحق والضلال مستمرين فى الدنيا إلى يوم القيامة . ولـكل منهما دعاة فى كل عصر وجيل . وفى المثل الجميل : « لـكل نمروذ إبراهيم ، ولـكل فرعون موسى . ولـكل ضال محمدى » .

قال تعالى : (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) وقال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال تعالى : (كُلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وماكان عطاء ربك محظورا) .

ولذا تراه تبارك وتعالى قيّض لأسلاف هؤلاء الضالين رجالا من قبل من خيرة من أفاد . وتصدى لنشر العلم ودفع الضلالات عن العباد . وليس ذلك فى مقدور كل أحد ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من أعلام العلماء القائمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . واختصهم الله تعـــالى بالوراثة المحمدية قولا وفعـلا ، ونور بصائرهم بما أناهم الله من البراهين والعرفان ، حتى صاروا خلفاء الأنبياء وواسطة عقد الأصفياء فهم أقرب الناس إلى حضرته ﷺ . المؤيدون بالمعرفة والتحقيق . والمقومون بالمتابعة والتصديق ، عرفوهم أنهم قد خرجوا على الدين وخرقوا الإجماع فى كثير من أحكام الكتاب والسنة والإجماع ، وضلوا عن فهم كثير من الآيات التى تقوم فى وجه عقيدتهم . كقوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى

ونصله جهنم وساءت مصيرا) وقد قال الله تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقال تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقد أجمع عقلاء الأمة على أن الأمة هى الجماعة المستفيضة الذين يستحيل تواطؤهم على الكذب . وهذا مستفاد من قول الصادق المصدوق ﷺ : « سألت ربى أن لا تجتمع أمتى على الضلالة فأعطانيها » رواه الإمام أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن أبى نضرة الغفارى رضى الله عنه وفى مسند الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما : « لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة ويد الله مع الجماعة » .

وفى البخارى : « من فارق الجماعة قيد شبر » وفى رواية : « قيد شعرة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وقوله ﷺ : « ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » والمراد بالمسلمين والأمة فى أقواله ﷺ هم الجماعة المستفيضة الذين يستحيل تواطؤهم على الكذب ، فهم المعصومون من الخطا والضلال، لا الشرذمة القليلة وهم الفرق الضالة فى الإسلام الذين هم من مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « وستفترق أمتى » الحديث وسيأتى .

فهؤلاء الأفاضل يرون أن الجهاد فى الدين واجب على العلماء بمحاربة المخالفين للكتاب والسنة كما هو واجب على الأمراء بمحاربة الكافرين . وكما هو واجب على كل فرد فى نفسه لنفسه قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين) وقال ﷺ : « والجهاد ماض لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال » رواه البخارى فبقيامهم لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ يرون

المارقين من الدين ، ويعرفونهم فى لحن القول ، فيكدرون صفوهم ، ويقطعون ألسنتهم ، ويدحضون حجتهم ، ويبينون أن الله تعالى حجب عنهم نور البصيرة واليقين ، فيعدون لهم ما استطاعوا من أدلة عقلية ونقلية ، وفيهم يجاهدون فيقطعون أوصالهم بالأدلة القاطعة ، ويمزقونهم بالبراهين الساطعة حتى تراهم كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة .

ولذا تراهم لاقيمة لهم على الدوام ضعفاء لايقوون ، وها هم أولاء كما ترون أنهم مع كثرتهم فى العدد لاوزن لهم بجانب أهل الحق . (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) .

وقد مضى على بدء طريقتهم لأول منشيء لها نحو سبعمائة سنة تقريبا ، ومع هذا الزمن الطويل لم يزدهم الله إلا خذلانا ومقتا ، فهم من مصداق قول الصادق المصدوق ﷺ : « افترقت المجوس إلى سبعين فرقة وافترقت اليهود إلى أحدى واسبعين فرقة ، وافترقت النصارى إلى ثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى » . رواه البخارى . كل هذا لسبق شقوتهم لم يهتدوا إليه .

وطبعا هم لا يضللون إلا ضعفاء الإيمان أو الأطفال ، أو العوام ممن لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا ، ويزينون لهم القول بأنهم على الحق ، وأنهم سيكثرون ، وأن الإسلام بدأ بالقلة وبالفقراء حتى كثروا ، ويحرفون لهم الكلم عن مواضعه بالأباطيل بما يموهون به على عقولهم القاصرة ليفسدوا عليهم عقائدهم السليمة . وهى إنما كانت مجرد تقليد ، وليس عندهم من البرهان ما يمكنهم أن يصدعوا به ، بل طمس الله بصائرهم

عن إدراك الحقائق . قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) .

مهمة

لا يخفى على ذوى البصائر النيرة ، والعقول الراجحة ، أن كثرة الدعاة لهم الآن ، ومصدر انتشار مطبوعاتهم فى هذا العصر هو مساعدة دول الاستعمار التى يرجع منشأ عداوتها ، إلى زمن الصحابة وسيد المرسلين . فهم من ذلك الحين لا يزالون يحلمون : أنهم يبيدون الإسلام والمسلمين بأى طريقة يفكرون فيها تفكير الشياطين ، وكم فكروا ؟ وسعوا وجاهدوا واجتهدوا بكافة الوسائل فلم يفلحوا : (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) (إن كيد الشيطان كان ضعيفا) فبحوله وقوته تعالى لم يستطيعوا لأن منزله حافظه ، ووعده سبحانه حق وقوله تعالى صدق .

ولم يبعد عليك العهد ، أنهم طالما أتوا بأعلم علماء وأفصح فصحاء قسيسيهم ورهبانهم للتبشير فى البلاد الإسلامية المستعمرة لهم وكان هنا بمصر تحاجهم صغار الطلبة من الأزهر ، فأعجزوهم وأفحموهم .

ولما لم يفلحوا عمدوا إلى فقراء وضعفاء الإيمان من الطلبة بالأزهر ، وساروا يستميلونهم بالأموال ، ويحملونهم على عمل جمعيات تضمهم وتجمعهم ، ويساعدونهم بكافة الطرق اللازمة لهم ، حتى فى نجاحهم فى الامتحانات ، بطريقة خفية إلى أبعد حد ، ليكونوا دعاة لهم فى التضليل فى المراكز التى ينالونها بعد التخريج ، ويوجهون كل واحد منهم فى ناحية من نواحى الدين ، للطعن فى عقائد المسلمين ، والتشكيك فيها ، والتفريق

بينهم ، وكان من أكبر همهم القضاء على حفظة القرآن الكريم ، وها هو ذا من أوصلوه إلى رياسة التربية والتعليم فى ذلك الوقت ، حتى اقترح أمورا . منها : القضاء على مدارس تحفيظ القرآن الكريم ، الذى هو مصدر أوامر الله تعالى ونواهيه لعباده أجمعين . ومنها : توحيد التعليم فى جميع المراحل الثقافية والدينية وغيرها توطئة لمحو مصدر العلوم والمعارف الدينية فى جميع أنحاء الكرة الأرضية « الأزهر » . الذى ما جعله الله عز وجل إلا ليكون مصدرا لفهم كلام رب العالمين ، وسنة سيد المرسلين . اللذين شاء الله تعالى بقاءهما ما بقيت الدنيا بأهلها الطيبين وكل من أراد هذا التراث الخالد بسوء قصمه الله ، كما هو مشاهد وجرت به العادة قال تعالى : (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) وقال تعالى : (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) .

ولما كان حال هؤلاء المضللين المأجورين فى حاجة إلى ما يستندون إليه . ويعتمدون عليه ، فى تلك الدعاوى التى أسندت إليهم بالمخالفة ، عمدوا الى كتب أسلافهم ، الضالين ليكون لهم شبه العذر فى قيامهم بهذه المهمة العظيمة - التى لم يقم بها ، ويصدع بأمرها ، ويجهر بدعوتها ، إلا كل خوان أثيم ومن يشاء منهم أن ينغمس فى حطام الدنيا كمن سبقه فارتقى من خدمة مراحيض المجسد إلى عمارات وسيارات . وغيرهم ممن كان من المهملين بين العلماء فارتفع إلى مركز لم يكن يحلم به ، لأنه كان فى زوايا الإهمال فارتقى وظهر بتلك الدعوة الضالة .

فالذى يطمح منهم إلى تلك المظاهر الدنيوية يدرج على مبادىء المخالفين ، وينسج على منوال المارقين ، وليس لهم فى تلك المخالفة إلا بيناه لك ، وخاصية

استعداد تكوينهم وقابليتهم للشـــر الصرف ، لمراجعتهم وقراءتهم كتب المخالفين ضد إجماع المسلمين من ذلك الحين القديم .

ولما عهدوا إليهم ذلك وقبلوه ، وقاموا به ، وأعلنوا الدعوة إليه ؛ ساعدوهم على طبع تلك الكتب لتكون لهم حجة فى أيديهم ، وعظموا مؤلفيها ، بالألقـاب الفخمة الضخمة ، ليـكون لهم الحق فى الأخذ منها ، والاستدلال بها ، فأغنوا أعداء الدين عن القسوس والرهبان المبشرين وهذه الدعوة ضد الإسلام والمسلمين ولا مبالاة لهم بمخـالفتهم لإجماع المسلمين ، وياليتهم وقف بهم الأمر لهذا الحد ، بل يطعنون فيمن أسسوا هذا الدين الحنيف الخالد ، الذى ينسبون أنفسهم إليه ،ويأخذون الألقاب العظيمة به وهو الإجماع .

ولم يدر الواحد منهم أن الإجماع هو السبب الوحيد فى نسبته لأبويه حتى — قال لى أحدهم : من أنّى لنـا أن هذا الولى الذى يزار ، مات على الإيمان ؟ حتى نعتقد أنه ولى ؟ فقلت له : ومن أنّى لنـا أنك ابن أبيك ؟؟ فبهت الذى كفر . . ثم أقمت له البرهان العقلى والنقلى من الـكتاب والسنة على أن الإجماع حجة فى الدين كما سنبينه فى الرد .

ومن طمس بصيرتهم التى لم يهتدوا بها إلى فهم كلام رب العالمين ولاسنة سيد المرسلين — وقد فهمها واهتدى إليها العلماء العاملون فأقروها وأجمعوا على جواز العمل بها — أنهم ينكرون وصول ثواب القرآن إلى الميت وأنه لاينفعه — وكيف هذا مع قوله تعالى (وينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقد ثبت بصريح صحيح السنة أنه شفى المريض . والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلى على الميت وقرأ الفاتحة فى حديثى البخارى

ومسلم . فهل قراءة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للفاتحة على الميت كانت عبثا ؟ وقد جعلها الإمام الشافعى رضي الله تعالى عنه ركنا فى صلاة الجنازة - وسنوضحه فى الرد عليهم .

وبلغ بهم من الشر والعمل على هدم إجماع المسلمين أنهم ينكرون كل ما استحدث فى الدين ، وجاء أصله فى كلام رب العالمين ، وبيان سنة سيد المرسلين ، من الأمور التى لم يشأ الله تعالى اظهارها إلا فى الأزمنة التى أراد تعالى اظهارها فيها على يد عباد لم يخلقوا إلا فى هذه الأزمنة قال تعالى (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) الآيات فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا يستنبطون من القرآن والحديث وكذلك يكون هؤلاء الآخرون من بعدهم وفى الحديث الشريف -- « رب مبلغ أوعى من سامع » الحديث .

فكل عمل ظهر بعده صلى الله تعالى عليه وسلم هو مطوى . فى الكتاب والسنة -- وإن لم يكن معمولا به فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم . كالصلاة والسلام بعد الأذان . وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة . والمنارة. وتجويف المحراب « وكل شىء يعارضون فيه وإلا لزم عليه قلب الأوضاع الالهية (ولن تجد لسنه الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وأيضا لوجب الإيمان بالرسول حين نزوله من بطن أمه لأنه نزل كامل التكوين . وهو عند الله رسول . ولكنه لم يجىء الزمن الذى يتكلم فيه ولا الزمن الذى يصلح فيه لملاقاة الوحى . ولا الزمن الذى يصلح فيه للتبليغ ، فهكذا الأحكام التى نزلت كاملة . وبينها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . فتكون من سنة أقواله الشريفة التى هى أحدى السنن الثلاث التى عليها مدار أحكام

الدين الإسلامى ولم تخرج تلك الأحكام عن أقواله . وأفعاله . وتقريراته ، صلى الله تعالى عليه وسلم . وسنوضحه .

ومما أطبق عليه عمى قلوبهم . أنهم يحرمون التوسل بالصالحين ، أو لم يروا أن الله أباح التوسل . حتى بالبهائم ؟ كما فى باب الاستسقاء .

فكيف لايجوز التوسل بعباد الله الصالحين ؟ والأموات أحيا من أحياء الدنيا .

روى البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس فقال : أيها الناس لاتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قال اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم — قال شارحه المراد التوسل إليه بنعمة الدين والدنيا والآخرة . فماذا يقول منكروا التوسل ؟ والحديث يؤخذ منه أوسع من ذلك فى التوسل وسنبينه إن شاء الله تعالى .

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم توسل إلى الله تعالى بنعمه التى منها الماء والسحاب والكتاب والتراب كما فى صريح السنة . وبمن سبق حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من الأموات من اخوانه الأنبياء فى حديث السيدة فاطمة بنت أسد أم سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنهم وناهيك بقوله العام (واسألوا لى الوسيلة) الذى ليس الغرض منه انتفاعه صلى الله تعالى عليه وسلم بدعائهم إنما هو عود النفع عليهم باظهار حبهم لحضرته وودهم له صلى الله تعالى عليه وسلم ليستحقوا بها الشفاعة الخاصة بذلك لإمتثال أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وسنوضحه فى محله إن شاء الله تعالى بأجلى تبيان .

الباب الأول

وفيـــه فصـــول

الفصل الأول

فى حصر شبه المخطئين ومن على مبادئهم الخاطئة

أقول : أن سبب جمع هذه الأدلة العقلية والنقلية من الكتاب والسنة . ومنها : الإجماع والقياس والاستنباط . هو ماكان يرد عليّ فى أثناء قراءتى للدروس فى الأزهر الشريف ، وكثرة السائلين من المعاندين ومن على مبادئهم . وكنت أراهم كالشياطين . تارة ظاهرين . وأخرى مختفين . فكنت أعرفهم بنور الإيمان فيسألون عمـا جاء فى القرآن المجيد من صفات الأفعال التى للحق عز وجل ممـا تشبه صفات الحوادث .

١ – كقوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) . (أأمنتم من فى السماء) . (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) . (الرحمن على العرش استوى) . (إليه يصعد الكلم الطيب) . وفى الحديث : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا » . وفى الحديث : « يضع الحق قدمة فى النار فتقول قط » وفى حديث الجارية التى أشارت إلى السماء ، وفى الحديث : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى هى شبه الضالين ومن على شاكلتهم . هذا بالنسبة للحق عز وجل ، وأما بالنسبة لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم .

٢ — فيقول السائل : ما معنى ما اشتهر على ألسنة النـاس فى قولهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أول خلق الله ونعلم أن أول من خلق البشر آدم عليه السلام .

٣ — أو لم يكن بشرا ، وأنه عليه الصلاة والسلام ابن عبد الله وآخر الأنبيـاء والمرسلين ؟ .

٤ — وما معنى الاستغاثة برسول الله ﷺ أليس هو كأخوانه الأنبيـاء والمرسلين أدى ما عليه من الرسالة وانتهت رسالته ؟ .

٥ — وما حكم زيارته ﷺ هل تنفع الزائر ؟ .

٦ — وما حكم التوسل به ﷺ بعد موته ؟ .

٧ — وما معنى يا نور عرش الله ؟ .

٨ — وما حكم الصلاة والسلام عليه ﷺ عقب الأذان ؟ والصلاة عليه بغير الأبراهيمية .

٩ — وما معنى السائل بحق نبيك عندك . وهل على الله حق لعباده ؟

١٠ — أو ليس الحلف بغير الله ، كالحلف برســول الله ﷺ ، وبالأوليـاء ، وبالآباء والأبناء شركا ؟ .

١١ — وهل رسول الله ﷺ حى ؟ .

١٢ — وهل يسمع ويجيب أم مات وانتهى ؟ (أنك ميت وانهم ميتون).

١٣ — وهل رسول الله ﷺ يرى يقظة ؟ وما معنى ذلك ؟ وقد انتهى الجسم وانقطعت عنه الحياة ؟ هذه شبههم بالنسبة للحق عز وجل ولرسوله صلى الله تعـالى عليه وسلم .

وأما بالنسبة لشبه مستحدثات الكون فكثيرة جدا منها قول السائل منهم :

١٤ — لانعمل إلا بالقرآن والثابت بالسنة الصحيح .

١٥ — لاحاجة للإجماع . ولا القياس ولا الأستنباط والدين الصحيح الخالص ماكان يعمل صلى الله تعالى عليه وسلم لاغير .

١٦ — لايعول لا على قول أبى حنيفة ولا مالك ولا الشافعى ولا ابن حنبل هم رجال ونحن رجال !!! لأن الدين واحد ، وهم فرقوه واختلفوا فيـــه !!!

١٧ — وما حكم الطلاق بالثلاث فى لفظ واحد ؟ .

١٨ — وما حكم الصلاة بالنعال وصلاة حاسر الرأس ؟ وما حـــكم امامتها وامامه من تظهر ملابسه تفاصيل عورته ؟ .

١٩ — وما حكم الصلاة فى المساجد التى فيها القبور ؟ .

٢٠ — وما حكم دفن الأموات فى المساجد ؟ وهل يجوز ذلك شرعا أم يحرم ؟ .

٢١ — وما حكم زيادة المنبر على ثلاث درجات ؟ وما معنى البوارق التى ترفع عليه ؟ .

٢٢ — وما حـكم قراءة سورة الـكهف يوم الجمعة فى المساجد ؟ وماحكم تجويف المحراب فى المساجد ؟ أليس ذلك بدعة ؟ .

٢٣ — وهل القرآن ينفع الميت ؟ وهل يصل إليه ثوابه ؟ وهل ينفعه عمل الغير الأجنبى ؟ .

٢٤ — وما معنى قراءة الفاتحة للأموات أو لقضاء الحاجات ؟ .

٢٥ — وهل ما يسميه الناس من أصحاب الأضرحة بالأولياء ينفعون ويضرون ؟ وإذا كانوا كذلك ؟ فأين فعل الله تعالى ؟ وهو يقول : (فعال لـما يريد) . (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . (أدعونى أستجب لـكم)

والحديث: «إذا سألت فاسأل الله» وإذا كانوا ليسوا كذلك فما معنى زيارتهم؟

٢٦ – وما معنى تقبيل الأضرحة والطواف حولها؟ وتقبيلك الأعتاب؟ وما معنى الشكاية لهم؟ وما معنى الطلب منهم؟ أو ليس النداء بأسمائهم على سبيل الاستغاثة شركا؟.

٢٧ – ما حكم الذبائح التى تذبح لأصحاب الأضرحة؟ وما حكم الموالد التى تعمل لهم؟ وللنبى؟ ولآل البيت؟ وما يعمل فيها من الزينات وغيرها؟ أليس بدعة؟.

٢٨ – ما حكم النذر الذى تعمله العامة لأصحاب الأضرحة؟ أليس هو لغير الله؟.

٢٩ – ما وجه تفضيل بعض الناس لما يسمونه بالولى؟ مع أنى لو عملت لكنت أفضل منه؟ وأيضاً لا ندرى هل مات على الايمان أم على الكفر؟.

٣٠ – هل الأموات يحسون ويعرفون من يزورونهم؟.

٣١ – ما حكم دلائل الخيرات والأوراد فى الشرع؟.

٣٢ – ما حكم العتاقة؟ وهل تنفع من تعمل له؟.

٣٣ – وما حكم التمائم والتعاويذ التى تعمل من القرآن؟ أو ليس القرآن إلا قانونا للتعامل به مع الله والناس؟.

٣٤ – وما حكم الصلاة الخفيفة؟ والعذبة؟ والتزام حالة واحدة من السنن التى بينها صلى الله عليه وسلم؟.

٣٥ – وما حكم زر الطربوش الذى من الحرير؟.

٣٦ – وما حكم لبس الحرير والقطنية والآلاج والسكروتة وما على شاكلتها من أنواع الحرير؟.

٣٧ — وما حكم هنيئا ، وحرما ، ومن ماء زمزم ، وتقبل الله وشفيتم ، وغير ذلك ؟ وحكم صـــلاة العيدين والتكبير . والصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع التكبير ؟ .

٣٨ — وما حكم المصافحة عقب الصلاة ؟ .

٣٩ — وما حكم تقبيل اليد لغير الوالدين ؟ .

٤٠ — وآخر يقول: ها هو القرآن أمامنا ، ولا نعمل إلا بما فيه لا غير؟

٤١ — وآخر يطعن فى السنة ؟ وفى رواتها ؟ .

٤٢ — وآخر يطعن فى عدالة الصحابة ، وينسبهم إلى سوء الحفظ ، وأن ما جاء عنهم فى رواية السنة ، كان تسعة أعشاره بالمعنى ؟ قاتلهم الله تعالى . الله يشهد لأصحاب رسول الله ﷺ بالعدالة قبل أن يخلقوا فى التوراة والانجيل وهم يطعنون فيهم ؟ عاملهم الله تعالى بما يستحقون ؟ .

٤٣ — وآخر يقول : لا فائدة للإجماع بعد القرآن ؟ .

٤٤ — وآخر يقول: لا يجب العمل إلا بما كان فى زمن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا نصلى عليه عقب التكبير فى العيدين .

٤٥ — وآخر يقول : ينفى القياس ، الذى أوجبه الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أولى الامر سواء .

٤٦ — وآخر يقول : يحرم تقليد المجتهدين من الأئمة المجمع على تقليدهم ويكفر من يقلدهم !! .

٤٧ — وآخر جاء بكتاب « كشف الشبهات لابن عبد الوهاب » الذى جمع فيه جميع الآيات التى فى القرآن بشأن الكافرين والمشركين وأصنامهم وجعلها شاملة لزائرى قبر النبى ﷺ والانبياء والصالحين ويقول : أليس هذا هو الحق ؟! .

٤٨ — وآخر يجيء بالعقيدة الواسطية لابن تيمية وببعض الوسائل التى كانت قدوة لأتباعه المعجبين برأيه وهم يعتنقونها بلا تدبر . ويقول : أنه لايجب العمل إلا بما فى هذا .

٤٩ — وآخر يقول: يحرم النظر فى كتب التوحيد، وهاهو القرآن فيه كل شيء .

٥٠ — وآخر يقول : ان أبوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى النار . يقول ذلك : الزعيم لهم فى مصر الآن !! .

٥١ — وآخر يقول : هل النبى صلى الله عليه وسلم عبد الأصنام ؟ إذ يقول ذلك : الداعية لهم فى مصر الآن !!

٥٢ — وآخر يقول : هل الاسراء والمعراج كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجسم والروح معا ؟ أو بالروح فقط ؟ كما أفتى به شيخ من شيوخ الأزهر فى الفترى التى أرسلت للقاديانية فى الهند . وهل سيدنا عيسى عليه السلام مات وانتهى ؟ كما أفتاهم به الشيخ فى الفتوى السابقة . ولنا على هذه الفتوى رد يكتب بماء الذهب تحت الطبع .

٥٣ — وآخر يقول : ما معنى القضاء والقدر والدعاء بردهما فى ليلة النصف من شعبان ؟ .

٥٤ — وآخر يقول : ما فائدة زيارة القبور ؟ وإذا كان هناك فائدة ؟ هل تعود على الحى أم على الميت ؟ .

٥٥ — وآخر يقول : ما معنى المحمل الذى يعمل فى مصر وما حكم الحالة التى تعمل وما دليلها شرعا ؟

٥٦ — وآخر يقول : أليس ما يسمونه كرامة الولى من ابطال نظام الكون ؟ وإذا قيل بها فلا تسلم بأنها تكون من الأموات ؟ هذه شبه المخالفين المارقين من الدين بالنسبة لمستحدثات الكون . وأما بالنسبة لما

بعد الموت فشبههم فيه لاتكاد تختلف عن شبه منكرى البعث فيقولون ما يقرب من قول من قالوا : (أأذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد) (أأذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديداً) إذ زعموا أن الموت فناء تام لاشعور ولا احساس معه بعد خروج الروح من هذا الجسم ، وان تشاء فقل : عقيدتهم فى الأموات كعقيدة الكفار كما قال تعالى عنهم : (يا أيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) .

٥٧ — ويقولون : هل الأموات يشعرون ؟ ومن طمس بصيرتهم قد تمسكوا بالآيات التى لم يفقهوا لها معنى كقوله تعالى : (وما أنت بمسمع من فى القبور) . (إنك ميت وإنهم ميتون) . (وما يستوى الأحياء ولا الاموات) وغير ذلك مما يلهمهم إبليس فهمه ، ويقسم لهم أن هذا هو الحق فى هذه المسألة وما عداه باطل ، وكل علماء المسلمين مخطئون وهو ومن معه على الحق ، وقد ضل عن ما ورد عن الله عز وجل والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك .

٥٨ — يقول هل الأرض لاتأكل أجسام ناس مخصوصين؟ ولو دفنوا فى المسبخة ؟ .

٥٩ — وكيف يكون حيا من أكلته الأرض ، ومن أكلته السباع والأسماك وغير ذلك ممن تفرقت أجسامهم ؟ .

٦٠ — وآخر يقول وهل العذاب والنعيم فى هذه الحالة على الروح فقط ؟ أو على الروح والجسم معا ؟ .

٦١ — وهل الأموات يعلمون بحال الأحياء ؟ وهل يعلمون بمن يموت بعدهم ؟ بمن كانوا يعرفونهم فى الدنيا ؟ وهل يتزاورون ؟ وهل يتأذى الميت بما يعمله عن الحى ؟ .

٦٢ — وآخر يقول : ما معنى قوله تعالى : (وما أنت بمسمع من فى القبور) . (إنك لاتسمع الموتى) هذه أكبر دلالة على أن الموتى لايحسون !!

٦٣ — وآخر يقول : لانأخذ بالحديث بل القرآن فقط وفيه كل شىء !!

٦٤ — وآخر يقول : ما حـــكم الذكر الذى يعمله المتصوفة الآن . والطبل . والصفير . والرقص . وما حكم ذلك فى الشرع الشريف ؟ وختم الصلاة وتلاوة الاوراد المعروفة بين مشايخ الصوفية ؟ .

٦٥ — وما حكم الذكر بالقصر فى الشرع ؟ والذكر بالتمايل ؟ .

٦٦ — وما حكم الذكر بالأسم المفرد ؟ .

٦٧ — وهل يجوز فى الشرع عمـــل ما لم تعمله الصحابة ؟ من هذه المستحدثات فى الدين ؟ .

٦٨ — وما حكم الذكر أمام الجنائز ، هل هو حرام أو بدعة ؟ .

٦٩ — وآخر يقول : فى الصوفية كالجنيد ، ومحيى الدين وأبى الحسن الشاذلى والغزالى والحلاج وابن القارض وأبى يزيد البسطامى ، وغيرهم ؟ هل كانوا على إسلام وهدى ؟ أو هم رءوس أهل الشرك والاثم فى تلك الأزمان ؟

٧٠ — وآخر يقول : الصوفية طائفة مجوسية دخلت على الإسلام والمسلمين ، وليس لها أصل فى الدين .

٧١ — وآخر يقول : الورد فى السمعيات وهى ما تتعلق بعلامات الساعة وأحوال الآخرة من وقت خروج الروح إلى دخول أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النـــار ـ ماهى الاقصص وأخبار إسرائيليات لم ترو إلا عن وهب بن منبه وكعب الأحبار وغيرهم ممن اعتنقوا الإسلام أخيرا كما أفتاهم به الشيخ فى فتوى الهند السابق ذكرها .

٧٢ — وآخر يقول : يحرم تقديم العقل على النقل . ولايجوز الرجوع

إلى العقل في الأمور الدينية . هذا ولهم غير ذلك مما سنبينه في إثبات الردود عليهم في كل مسألة من مفترياتهم الفاسدة ، ومحق أباطيلهم الكاسدة ، بحول الله تعالى وقوته ، فإنه المستعان ولست أدري هل أهل هذه الفرق الزائغة الضالة ممن يعارضون الحق عز وجل في آياته بكافة أنواعها من القرآنية والكونية فيكونون ممن قال تعالى فيهم : (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد) .

أوهم قوم ممن خلق الله تعالى من القسم الثالث وهو أحط الموجودات الذين قال الله فيهم : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

أوهم فقدوا انسانيتهم فتكالبوا على حطام الدنيا بأية وسيلة مع عدم مبالاتهم بغضب الله تعالى عليهم .

أو هم امعات لكل من يرون أن في اتباعهم أدنى مصلحة لهم - ولقد صدق من قال :

انا نرى نفرا عند الملوك سموا
وما لهم همة تعلوا ولا ورع
وأنت ذو همة في المجد عالية
وقد ظمئت وهم في الجاه قد كرعوا
فقلت باعوا نفوسا واشتروا ثمنا
ولم أبعها ولم أخضع كما خضعوا
قد يكرم القرد اعجابا بخسته
وقد يهان لفرط النخوة السبع

الفصل الثاني

أول من أنشأ الفساد بين العباد ومن اتبعه من أهل الضلال والعناد

أعلم أن أول من أنشأ الفساد ، وابتكر الشقاق والضلال بين العباد وأسس الزيغ عن الحقيقة ، وعدم الموافقة ، والخروج عن الجادة إلى العناد ، هو أول عاص الله تعالى فى خلقه أجمع ، وهو ابليس لعنه الله تعالى . ومصدر ذلك :

١ ـ استبداده بالرأى فى مقابلة النص . ٢ ـ واتباعه الهوى فى معارضة الأمر . ٣ ـ واستكباره بالمادة التى خلق منها وهى النار على المادة التى خلق منها آدم عليه السلام وهى الطين ، وقد تشعب من هذه الشبهة شبهات وسارت فى الخليقة ، وسرت فى أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلال ـ وهذه ترجع فى الأصل إلى حالة واحدة وهى : الحسد فى مقابلة النعمة ـ فاعتراضه على خالقه لجهله بمقام رب العالمين . فقال : (أأسجد لمن خلقت طينا) وقال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) ثم قال : (أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا).

ولهذا كان الناس عنده على نوعين :

الأول ـ نوع يئس من التسلط عليه ، وانقطع أمله فى اغوائه ، وهم من ليس له عليهم سلطان وهم العباد المخلصون كما هو صريح اعتراف ابليس على نفسه فيما حكاه الله تعالى بقوله : (لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) .

وقد أكد الله تعالى الاستثناء الذى قرره ابليس راغما فقال تعالى :

(ان عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) .
والثانى - نوع آخر مكنه الله تعالى منه ، فسماه حزب الشيطان وجنده وأتباعه وهم الغاوون المعنيون بقوله تعالى (إلا من اتبعك من الغاوين) وهذا النوع الثانى ، منه الكافر الصريح ، ومنه المنافق الذى قال : آمنت بلسانه ولم يؤمن بقلبه وجنانه ، وهو أخطر من الكافر الصريح ، وأدخل فى سلك الجندية الابليسية والرعوية له . ومن هذا الصنف الثانى : الخوارج على ما ورد وصفهم فى الأحاديث الآتية ، ومن هذا النوع أيضا ، عصاة المؤمنين إلا أن سلطان ابليس عليهم ، غير تام لانخراطهم فى حزب الله بالسبب الأقوى ، وهو الإيمان ، ولاقبال الله عليهم كلما استغفروا وأنابوا كما قال تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) .
فقد بان لك أن الخوارج غير عصاة المؤمنين حالا ومالا ، أما حالا : فلأن عصاة المؤمنين أجوافهم عامرة بالإيمان لم يصبها سهام ابليس ، وإن لعب بجوارحهم الظاهرة أحيانا ، فردهم : اما إلى توبة نصوح واما إلى عفو من الغفور الرحيم ، ولا كذلك الخوارج فقد انتزع ابليس من صدورهم الإيمان وحشاها مكان الإيمان غلا وحقدا واستهزاء بالمؤمنين .
ومردهم إلى عذاب النار وسخط الجبار وبئس القرار .
وما تقول فى قوم ليس لهم عداء ولا خصومة ولا اعتراض إلا على أهل الله تعالى وخاصته من خلقه يسمونهم أصناما ويسمون محبيهم عباد أصنام ويلقبون أنفسهم بأنصار السنة ، فالى أى فريق يعزى هؤلاء ؟ وفى أى سلك ينخرطون ؟ لاشبهة فى أنهم من الخوارج المارقين ، كما لاشبهة فى أن الخوارج من المردة المنافقين ، وصدق الله تعالى حيث يقول : (ليميز

الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم) فقد استبان لك أن عناصر الشـــر فى الدنيا ثلاثة : ـ الكفار ، المنافقون ، الخوارج .

وهم جند ابليس الذين لهم خصومة مع الأنبياء المكرمين ، ومن على أقدامهم إلى وقتنا هـــذا ، وان شاء الله تعالى سنذكر الحكمة فى كونها ثلاثة ، ولكنها ترجع إلى واحدة عند ذكرنا السر فى تكوين الموجودات، وهذه الشبه اعترض بها اللعين على خالقه جل شأنه نتيجة محاورة دارت بينه وبين الملائكة لعدم سجوده مع الملائكة فقال : ـ

١ ـ لم خلقنى ؟ ٢ ـ ولم كلفنى بمعرفته وطاعته ؟ ٣ ـ ولم كلفنى بطاعة آدم والسجود له ؟ ولما لم أسجد له ؟ ٤ ـ فلم لعننى وأخرجنى من الجنة ؟ ٥ ـ ولم سهل لى الدخول على آدم الجنة ثانيا فوسوست له وغررته وأخرجته معى منها ؟ ٦ ـ ولم سلطنى على أولاده حتى أراهم من حيث لا يرونى ؟ ٧ ـ ولم أمهلنى لما استمهلته ؟ ولو أهلكنى لاستراح العالم منى وعاشوا على الفطرة طاهرين سامعين مطيعين على الخير بدون امتزاجه بالشر ؟ .

فهذه السبع الشبه التى قالها اللعين الجاهل بمقام رب العالمين ولم يدر الجهول أن من مقتضيات كمال الذات أن تكون جامعة بين الضدين إذ لو خلقت على الخير فقط لاتصف الوجود بالنقص للشق الآخر إذ لابد للخير من شر يقابله والكون كله مبنى على أصلين : المقابلة . والمماثلة . كما هو معلوم إذ بالمقابلة يأتى العناد والتنافر وبالمماثلة يأتى التآلف والتوافق أن الله على كل شىء قدير .

هذا ومن المعلوم الذى لا مراء فيه أن أول ظهور الخير هو آدم عليه السلام فبدأ اللعين بالمقابلة بالشر بما ظهر فيه وبه ومنه ومن هنا صح قولنا أن كل شبهة وقعت لبنى آدم فإنما هى من اضلال الشيطان ووساوسه نشأت

من شبهاته ولما كانت أسباب الضلالة محصورة فى السبع رجعت كبار البدع والضلالات إلى سبع ولا يجوز أن تعدو شبهات فرق الزيغ والكفر هذه الشبهات وان اختلفت صورها وتباينت أحوال الطرق فيها إليها بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور وترجع جملتها إلى استنكار الأمر مع ظهور الحق — وإلى الجنوح للهوى فى مقابلة النص — وها كم من جادل نوحا وهودا وصالحا وإبراهيم ولوطا وشعيبا وموسى وعيسى ومحمدا صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين — فكلهم نسجوا على منوال اللعين الأول فى إظهار شبهاته — وحاصلها يرجع إلى دفع التكليف عن أنفسهم وجحدوا أصحاب الشرائع والتكاليف بأسرهم إذ لا فرق بين قولهم (أبشر يهدوننا) وبين قوله (أأسجد لمن خلقت طينا) وعن هذا صار مفصل الخلاف ومحز الافتراق كما هو فى قوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا) — فبين أن المانع من الإيمان هو هذا المعنى كما قال فى الأول — (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) — وقال المتأخر من أتباعه كما قال المتقدم : (أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) — وكذلك لو تعقبنا أحوال المتقدمين منهم وجدناها مطابقة لأقوال المتأخرين — (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) — (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) - فاللعين الأول لما أن حكم العقل على ما لا يحتكم عليه العقل لزمه تحكم الخلق فى أمر الخالق جل شأنه ولقد صدق بعض المحققين فى قوله ان الله تعالى خلق ابليس ليكون رسولا للشر ضد جميع الأنبياء والمرسلين ومن على منوالهم ليحصل بذلك تمام نظام العالم بأن يكون للهدى رسول يدعو إلى الخير وللضلال رسول يدعو إلى الشر وهذا معلوم

بالضرورة فى أصول الشرائع وبذلك يكون الجهاد وفضل المجاهدين قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان أنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى) — (لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) . ومن أمعن فى النظر وتأمل بعين الفكر عرف أن أول مظهر للخير قابله أول مظهر للشر فكان ذلك مصداق قوله تعالى : (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) — وقد قلنا أن المقابلة والمماثلة هما أساس التكوين — وهذا فى الممكن بالفعل وأما فى القول فقد سبق قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقوبل بالقول (أتجعل فيها من يفسد فيها) وذلك استفهام عن الحكمة فسبحان المبدع — (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) .

تبصـــرة وتبيان

لما تقدم لك الكلام على إبليس وعلى شىء من معنى بعض حكمة الحكيم العليم فى إيجاده تعالى للموجودات — عنّ لنا أن نذكر لك شيئا من معنى أهل الخطاب والتكليف — وهم أربع — الملك والجن والشيطان والإنسان عساك أن تهتدى إلى الصراط المستقيم وتقف على شىء من عظيم قدرته عز وجل ويكون ذلك سلاحا قويا لك فى دفع شبه الزائغين المنحرفين عن الصراط المستقيم الذى أناره رب العالمين بكتابه المبين الجامع بين نوعى الهدى والضلالة قال تعالى (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) . وأن تعجب فعجب قولهم فى خير خلق الله ﷺ أنه بشر مثلك مثله ، والاطراء فيه زيادة عن الحد

شرك ؟ فكيف يتفق هذا مع قول الله تعالى فى حضرته ﷺ (وانك لعلى خلق عظيم) والخلق هو الجامع لأمهات الكمال والفضائل وقد سماه تعالى نورا وكتابا مبينا فى قوله جلت قدرته (قد جاءكم من الله نورا وكتابا مبين يهدى به الله) . الآية قال العلامة الألوسى فى تفسيره : النور والكتاب هو حضرته ﷺ بدليل عود الضمير عليهما مفردا . وسيأتى حرفيا عند بيان حقيقته ﷺ وقد سماه تعالى : الحق فى قوله تعالى : (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى ما أوتى موسى) وقد وفينا المقام فى الكلام على الحقيقة المحمدية على ما سيأتى . وقال تعالى لحضرته ﷺ (تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) وفى صحيح الترمذى رحمه الله تعالى فيما يروية عن جابر بن سمرة رضى الله عنه أنه قال رأيت رسول الله ﷺ فى ليلة أضحيان وعليه حلة حمراء فجعلت أنظر إلى وجهه وأنظر إلى القمر فوالله الذى لا إله إلا هو لهو عندى أبهى من القمر ، فانظر إلى من كشف الله تعالى بنور الإيمان عن قلبه فعرف رسول الله ﷺ وإلى من كان يراه كشخص عادى ، وهاكم حديث إسلام ثمامة المروى عند البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث النبى ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفه يقال له ثمامة ابن أثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج إليه النبى ﷺ فقال ما عندك يا ثمامة ؟ فقال عندى خير يا محمد ان تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فترك حتى كان الغد ، ثم قال له ما عندك يا ثمامة ؟ قال ما قلت لك ان تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى كان بعد الغد ، فقال ما عندك يا ثمامة ؟ قال عندى ما قلت لك ، فقال أطلقوا ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله يا محمد والله ما كان على

وجه الأرض وجه أبغض إلىّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلىّ ، والله ما كان من دين أبغض إلىّ من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلىّ ، والله ما كان من بلد أبغض البلاد إلىّ من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلىّ ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل صبوت قال لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى صلى الله عليه وسلم .

فأنت ترى هؤلاء الملاحدة المارقين من الدين الذين أعمى الله تعالى بصائرهم ينظرون إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نظرة ثمامة إليه وهو كافر عدو لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم — ولو كانوا مسلمين لنظروا إليه عليه الصلاة والسلام نظرة ثمامة وهو مسلم وسيأتى ما هو أوضح إن شاء الله تعالى .

واعلم ان الفاعل المختار اقتضت حكمته العالية التنويع فى الموجودات فأوجد عالم الأنوار — وهم من عالم الأمر — لا من ذكر وأنثى بل بقول كن — كالملائكة — وعالما آخر من مارج النار وهى الحرارة الشديدة الناشئة عن النار ليس فيها لهب ولا دخان وجعل فيهم التناسل من ذكر وأنثى وهم الجان — وعالما آخر من عالم الجن وهم الشياطين من الذكورة والأنوثة أيضا وعالما آخر وهو عالم المادة الآدمية وجعله مركبا جامعا لجميع العوالم السالفة الذكر فجعل فيه ما فيهم وزيادة المادة وجعلهم من ذكر وأنثى فكانوا أفضل المكلفين ولما كانوا أفضل المكلفين كانوا أفضل المخلوقين أجمعين وبه يستدل على أن الحقيقة الإنسانية أفضل الحقائق الإمكانية . وأن الله تعالى جعل منها أفضل الرسل ولله تعالى عوالم لا تحصى . وآثار الصفات من الموجودات

لا تستقصى — (وما يعلم جنود ربك إلا هو) — والكلام فى ذلك لا تسعه الأوراق لجلى الصانع رب العالمين — ولما كان هذا الخلق على أنواع بمقتضى آثار الصفات وفى الأصل على حالين بمقتضى كمال الذات كان المآل إلى نزلين ، الجنة والنار ، هذا ولما كانت حكمته العالية تقتضى ربط الأمور بأسبابها جعل التكليف محلا للإستحقاق لتظهر حكمة العدل والإنصاف — والتكليف لم يكن إلا لهؤلاء الأربع وكل بحسب ما خلق له إذ الحكم التدوينى محاذ للحكم التكوينى .

ولما كان الإنسان أكرمهم على الله تعالى لما سبق بيانه من أن تكوينه جمع كل حقائق المكونات — كان فيه اجمال الموجودات . ومن الإجمال يكون التفصيل — قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) — وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه :

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ففى الإنسان الحيوان والنبات والجماد — وفيه الهواء والتراب والنار والماء . وقال بعض المحققين أنه مشتمل على العالمين — العلوى والسفلى كما لا يخفى على كل ذى ذوق سليم ومن له أدنى اطلاع على كتب المحققين . فالعوالم كلها خلقت له قال تعالى (خلق لكم ما فى الأرض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم ما فى السموات والأرض جميعا منه) وهذا أصح دليل يرد به على من قال ان الملائكة أفضل من بنى آدم — ولقد أطال الكلام وأطال معه فى الرد عليه أفاضل الأمة بأدلة عقلية ونقلية على ما سنوضحه إن شاء الله تعالى بأجلى بيان وهو ولى التوفيق .

ومن وحى الشيطان إليهم اعتراضهم على زيارة الأنبياء والأولياء ان

من أمعن فى النظر بعين الحقيقة ، وجد أن كل مخالف للسواد الأعظم من أهل الحق فى كل أمة من الأمم الماضية عامة وفى هذه الأمة خاصة ، هو على مبدأ ابليس المخالف الأول لجميع أهل الحق وهم الملائكة الذين أذعنوا لأمر الله تعالى بالسجود لآدم وقد شذ هو وخالف كل أولئك وانصرف عن المعنى المراد الواضح وهو ما فى تكوين آدم من بديع صنعه تعالى وتقليبه اياه من قالب إلى قالب — من تراب إلى طين إلى حمأ مسنون إلى صلصال كالفخار إلى بشر سوى . فكان أمر السجود منه تعالى لا لذات آدم ، بل لصانع هذا الصنع البديع — ولما منحه من عالى أسراره الإلهية قال تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فقد غفل اللعين وانصرف عن ذلك إلى ظاهر الحال وغالط بأن المأمور بالسجود له هى صورة آدم فقال : لا ينبغى السجود إلا للخالق ؟ وآدم مخلوق !! فلا ينبغى السجود له بل ازداد فى الدلالة بالتمويه والتضليل بالبرهنة على أنه محق صادق الدعوى مؤيدا فكرته ونظريته بأنه لو كان السجود يصح لمخلوق لكان هو أولى من آدم ؟ إذ أن تكوينه أقوى وأعلى من ذلك العنصر الذى تكون منه آدم بقوله : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

ومن هنا قال كل من على هذا المبدأ فى زيارة الأنبياء والأولياء : هذا مخلوق مثلنا ومن يعمل يكن مثله أو خيرا منه ؟ ويغفل عن أسرار الله تعالى فى المزور كما غفل ابليس عن أسرار الله تعالى فى آدم . وهذا من طمس بصائرهم .

قال سيدى على وفا فى إبليس ومن على مبادئه :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره
في وجه آدم كان أول من سجد
أو لو رأى النمرود نور جماله
عبد الجليل مع الخليل وما جحد
لكن جمال الله جل فلا يرى
الا بتخصيص من الله الصمد

وأراد أيضا معارضة الحق فى حكمته فى توجيهه عباده إلى الأسباب الدالة على خالقها والأخذ فى تلك الأسباب التى لا وصول إلى غاية إلا بها وتكون هى من أكبر الدلالات على معرفته جل وعلا ، إذ لولاها لحاروا فى معرفته تبارك وتعالى . فبها . ومنها . يتعرفون .

فكانت الأسباب هى أكبر دال على الله تعالى بالظهور والإيجاد ، ما خلقها إلا لذلك ، لأن المنصف ذا العقل الرشيد ينظر فى السبب فيجده مخلوقا مثله فيستدل به على الخالق ، إذ الصنعة تدل على الصانع . والعباد باعتبار تكوينهم لا يعرفون إلا المشاهد المعاين القريب منهم وأن الله تعالى جعل الأسباب لتوصل إلى المسببات وهى غاية كل طلب ، ولذلك أمرهم بالتوجه إليه والقصد منه قال تعالى : « واسألوا الله من فضله » أى مما قربه إليكم وجعله بين أيديكم على ما قرره العلامة البيضاوى فى تفسيره — ولولا ذلك لكان الناس أن يتساءلوا : وأين الله ؟ كما قالوا من قبل : (أرنا الله جهرة) وذلك لما جبلوا عليه من معرفة المعاين المشاهد فيريدون أن يروا الله تعالى كذلك ؟ والله تبارك وتعالى دلهم على معرفته بالغيب قال تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) ويعرف جل وعلا بنور الإيمان وقوة اليقين من غير رؤيته جل وعلا بالأبصار .

على أن من المخلوقات ما لا يرى ولا يعرف إلا بأثره كالهواء مثلا ومنها ما لا يرى إلا لبعض مخلوقاته من أهل التحقيق الموثوق بهم كالملائكة والجن ولهذا وصف الله تعالى عباده المتقين بقوله : (الذين يؤمنون بالغيب) أى يثقون ويؤمنون به إيمانا جازما مطابقا للواقع عن دليل كالإيمان بوجود الملائكة، والجن والهواء والزبد فى اللبن والدهن فى الحب، فهذه أشياء حقيقية ثابتة والعلم بها متحقق، فعدم رؤية هذه الأشياء ليس دليلا على عدم وجودها، بل هى موجودة قطعا مع عدم رؤيتها ، والإيمان بوجود موجدها واجب وان لم نره جل وعلا .

على أن موجد هذه الأشياء دلنا على وجوده بها ، والإيمان بذلك واجب ، ومن لم يؤمن بذلك فهو كافر وهالك . والإيمان بكل ما ذكرنا من الموجودات كذلك ، وإن لم نرها ، فأوجب الله تعالى علينا الإيمان به .

واعلم أن الله تعالى قد فضل بعض أنواع المخلوقات على بعض ، من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجماد بميزات يمتاز بها بعضها عن بعض ، وذلك أمر مشاهد لا سبيل إلى انكاره ، وهذا التفضيل أمر ذاتى بمقتضى تكوينه الذى فطره الله تعالى عليه قال تعالى : (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه) فأنت ترى دهن اللبن غير دهن الحيوان ، غير دهن النبات ، غير دهن الأرض ، وو كل فرد منه ميزة تغاير ما فى الآخر ، والملائكة كذلك فى كل فرد منهم ميزة تغاير الآخر ، والجن كذلك والانس كذلك ، والحيوان والطيور والدواب والهوام والحشرات والهواء والمياه وبقاع الأرض من الجماد وكل ذلك مخلوق ميسر لبنى آدم ، وقد أمره تعالى أن يقصد كل شىء من بابه قال تعالى : (وأتوا البيوت من أبوابها) فمن أراد شيئا فليأت ذلك المخلوق فيجد حاجته عنده وفيه ولاينبغى أن يعتقد أن هذا المخلوق هو الذى أدى له حاجته وإنما هو سبب والإنسان مجبول بفطرته على الأخذ

بالأسباب كما أمره سبحانه وتعالى إذ الآيات الكريمة والسنة المطهرة ناطقة بذلك ألا تنظر إلى قوله تعالى : (ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض) فأرشدهم تبارك وتعالى إلى الجهات التي تختص بطلبهم ، وإن كان ما هم فيه خيرا مما طلبوه فقال تعالى : (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) ولكن يلفت نظر عباده جل شأنه إلى اختصاصه بعض الموجودات دون بعض ، ويلفت نظرهم أيضا إلى الأسباب وأنه تعالى كون موجوداته عليها ، ولا يتأتى حصولهم على طلبهم وأغراضهم إلا منها وبها فقال لهم تبارك وتعالى لما سألوا عن بيان وتعين القاتل (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وناهيك بقوله تعالى : (اضرب بعصاك البحر) وبقوله تعالى : (اضرب بعصاك الحجر) وفى قوله تعالى : (وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) والحديث الشريف الصحيح الذى يرويه البخارى وجميع أصحاب السنن والمسانيد بما آذى به بنو اسرائيل سيدنا موسى عليه السلام . وكان يغتسل منفردا عن الناس فقالوا : موسى آدر أى فى خصيتيه كبر فهذا هو الحامل له على الانفراد ؟ فخلع ثوبه وعصاه ووضعهما على حجر يوما ونزل البحر واغتسل وخرج فطار الحجر بالثوب والعصا يعدو وهو يجرى وراءه ويقول: (ثوبى ياحجر ثوبى ياحجر) وينادى الحجر وهو يجرى وراءه حتى مر على الملأ الجلوس من بنى أسرائيل ورأوه على هذا الحال فقالوا : ما بموسى من ضر ، ثم أدرك الحجر ومال عليه ضربا بالعصا . أليس هذا كله من تشريع الحق جل وعلا لعباده وخاصة لذهابه إلى مكان النور من الشجرة .

ولا يخفى عليك ذهابه وطلب التعلم من الخضر ؟ لِمَ لم يطلب ممن بيده ملكوت كل شىء أن يجيئه بالحجر أو أن يعلمه كما علم من لقى التعب فى لقيه وأيضا لم خص تبارك وتعالى جل عرفات بقبول الحج ؟ ولم خص البيت

الحرام بالبركة ؟ (ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا) . ولم خص جهة السماء برفع الأكف لها عند الدعاء ؟ الله يخص الحجارة والبقاع والماء والهواء والنبات المخلوقة لبنى آدم بالبركة ويوجههم إليها وينفعهم بها من بركاته تعالى ويجردهم منها بعد قوله تعالى : (وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا) وفى الحديث الصحيح الذى يرويه البخارى وغيره من أئمة الحديث العام الشامل من قوله ﷺ « ان من الشجر شجرة ما بركتها كبركة المسلم » .

ففى بقاع الأرض قال تعالى : (فى البقعة المباركة من الشجرة) وفى قوله تعالى :(ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) وفى قوله تعالى : (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره الى الأرض التى باركنا فيها) وفى قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجدالحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وآية البيت المحرم التى تقدمت وفى الحديث الذى يرويه البخارى وغيره .

« أتانى آت من ربى صل بالعقيق فإنه واد مبارك » وفى النبات : قوله تعالى : (من شجرة مباركة زيتونة) وفى الماء : قوله تعالى . (وأنزلنا من السماء ماء مباركا) وفى الهواء : قوله تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) .

فهكذا أسرار الحق عز وجل فى مخلوقاته ، لأنها آثار صفاته ، ولابد أن يكون للصفات فى كل مخلوق أثر يدل على المؤثر جل شأنه ليكون من أكبر الدلالات على مبدعه .

فيجب على الإنسان الذى خلق الله تعالى له كل شىء وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه جل شأنه أن تكون نظرته الى تلك الأشياء نظرة بصير متدبر فى أسرار الله تعالى فى هذه المخلوقات وما اشتملت عليه من بديع الآيات البينات الدالة على مبدعها جل وعلا قال تعالى :

(أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) وقال تعالى : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وقال تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

وعلى هذا فلا يكون اتجاه الإنسان إلى تلك المخلوقات لذاتها ، بل يكون اتجاهه إليها اتجاها إلى الذى أبدعها سبحانه وتعالى كما قال بعض العارفين : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه . وقال الصديق رضى الله تعالى عنه ما رأيت شيئا إلا رأيت الله قبله . وقال بعض العارفين أيضا .

إذا ما رأيت الله فى الكل فاعلا رأيت جميع الكائنات ملاحا
وإن أنت لم تشهد محاسن صنعه جهات نصيرت الملاح قباحا

وقصير النظر ينظر إلى المخلوق لذاته ويعطيه صفة الإستقلال بما يفعل، وهذه ليست من عقائد المسلمين .

وهذا هو منشأ الخلاف بين أهل الحق وأهل الضلال الذين يجهلون ذلك ويقول قائلهم : كيف أترك الخالق وانصرف إلى المخلوق ؟ فهذا جاهل بحقيقة الأمر يجب تعليمه وتوجيهه لعله يهتدى إلى الصواب .

على أن من الضالين من يعرف ذلك على حقيقته ويصرفه مكابرة إلى ما يوافق هواه ، فهو على مبدأ إبليس اللعين الذى صرف أمره سبحانه وتعالى بالسجود لآدم إلى غير المراد منه . وهذه معارضة فى الحق ظاهرة البطلان وصاحبها عدو مضل مبين .

وأما أهل الحق فمنهم من يعرف ذلك عن علم ويقين بفطرته ، ومنهم من يعرف ذلك بأنه وضع إلهى فى المخلوق يؤمن به ويتبع فيه أهل الحق من علماء المسلمين ، ويعتقد أن المخلوق ما هو إلا عبد مقرب من ربه ، وأن الأمر كله لله وحده كما حدث فى مقام سيدى أحمد البدوى وذلك أن الشيخ

محمد عبده حينما كان وكيلا لمشيخة الأزهر ذهب إلى معهد طنطا لأداء عمله به فوجد امرأة أمية تخرج من جيبها نقودا وتضعها فى صندوق النذر لسيد أحمد البدوى وهى تقول :

« ياسيدى خلى بالك من الراجل والعيال والزراعة والبهائم وأنت عليك الصبر واحنا علينا الوفا » .

فنظر الشيخ محمد عبده إلى الشيخ إبراهيم الظواهرى شيخ معهد طنطا حينئذ وقال له : ما هذا ياشيخ ؟ أوثنية فى معهد العلم ؟ فنادى الشيخ إبراهيم الظواهرى المرأة وقال لها : ماذا قلت للسيد ؟ فأعادت عبارتها فقال لها الشيخ إبراهيم .

وهل السيد ربنا حتى تقولى ذلك ؟ فقالت : لا ياسيدى هو طاهر مقرب يطلب لى من الله » .

فلم يسع الإمام إلا السكوت والانصراف .

وهذه قد سمعتها بأذنى من لسان المرحوم الشيخ خميس بلال الذى كان مدرسا بمعهد طنطا وقتئذ .

فاتجاه الزائر للولى ، إنما هو لظهور نعمة الله تعالى عليه وإبرازها فيه ، فالزائر مهما بلغ من الجهل لايعتقد أن للولى فعلا مستقلا به دون الله تعالى فرجع الأمر كله لله وحده ، كما يتجه المريض إلى الطبيب الذى منحه الله تعالى نعمة الطب كوسيلة للشفاء والله تعالى هو الشافى .

فهل نحرم على المريض أن تذهب إلى الطبيب وينتظر الشفاء بلاسبب ؟ فالزائر يزور الولى رجاء أن يكون قد قدر الله تعالى له خيرا على يديه وعنده وعلى كل حال ففى الزيارة صلة لله تعالى ومودة لآل بيت نبيه ﷺ وقد قررنا أن لا ولى لله تعالى من الذين يخرق الله تعالى على أيديهم

العادات إلا من آل البيت . فتوجه الزائر إلى الأولياء ما هو إلا للنعمة التى أبرزها الله تعالى فيهم دون غيرهم وهى توالى الكرامات وإلا فالأولياء بغض النظر عن تلك النعمة هم كأفراد الناس كما تعلمون أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أيضا لم يعرفوا إلا بتوالى المعجزات والا فهم كغيرهم من أفراد الناس ، ولم يقصدوا إلا لنعم الله تعالى فيهم وعليهم ، فالمقصود فى كل حال هو الله سبحانه وتعالى المنفرد بالإبداع والإيجاد وحده لاشريك له فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وأما ما ورد فى كتاب كشف الشبهات لابن عبد الوهاب الذى جمع فيه جميع الآى التى نزلت فى الكتاب العزيز بالرد على عبدة الملائكة والجن والكواكب والأصنام وغيرها من الحيوانات والنار وجعلها فى زوار الأنبياء والأولياء ليشرك بها البرءاء من المسلمين الموحدين الذين يشاهدون آيات الله تعالى فى موجوداته للدلالة على أنه الواحد المعبود . فى ما تحرك وسكن وتغير وثبت فهو من الضلالة بمكان ، وهو مردود من ثلاث جهات، الأولى ، أن هذه الآيات الكريمة ناطقة بأن من نزلت فيهم عبدوا غير الله تبارك وتعالى ، والفرق شاسع بين عبادة غير الله وبين زيارة أحباء الله لما فيهم من أسرار الله عز وجل - والثانية أن النبى ﷺ ، قد أخبرنا بعصمة أمته ﷺ من الشرك ، فى الحديث المروى عند البخارى وغيره وهو قوله ﷺ « والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى » الحديث - والثالثة لان هذا الكتاب فيه كل المخالفة لإجماع المسلمين وقد رد كل ما جاء فيه أفاضل عصره وخاصة رسالته فى التوحيد فإنها على نهج سابقيه فى المخالفة حذوك النعل بالنعل وسنبينه فى الرد عليهم ان شاء الله تعالى .

أبهل من يفرد المعبود جل شأنه فى جميع أنواع المعاملات للشاهدة له سبحانه ،كمن يعتقد أن للموجودات عملا بغير عمل الله سبحانه ؟ أفلا تعقلون !!

وهم يقولون : هذا يجوز أن يكون فى الأحياء لأنهم قد ينفعون بدعوة صالحة ، أو بتوسط فى قضاء حاجة ، وأما الأموات فقد انقطعت صلتنا بهم وانتهوا إلى ما عملوا وقد شغلوا به أن خيرا وإن شرا .

ونحن نقول لهم : إن الحياة الآخرة التى أولها ما يسمى بالموت الدنيوى، هى أقوى وأوسع من الحياة الدنيا . قال تعالى (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) فهى الحياة الحقيقية والحياة الدنيا بجانبها لا تذكر قال تعالى (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) ولذلك يقول الإنسان بعد موته (ياليتنى قدمت لحياتى) إذ عرف أن الحياة الآخرة هى الحياة حقا وفيها يعلم الإنسان أحوال الناس فى الدنيا وما لديه فى الآخرة فى آن واحد . وهم قطعا يسمعون منا ما نقول ويجيبوننا غير أن الكثير من الناس لا يسمعهم ، وذلك عام فى جميع بنى آدم مسلمهم وكافرهم ، وناهيك بحديث القليب قليب بدر الذى خاطب فيه النبى ﷺ الموتى من كفار قريش بقوله : (هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟) فقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يارسول الله أتناجى موتى ؟ ! فقال : « ما أنتم بأسمع منهم » .

فكيف يقولون مع هذا ومع صريح القرآن الكريم ؟ ! أن المراد بحياة الآخرة . هى ما بعد القيام من القبور وفى الحديث الشريف الذى كشف لنا أن الحياة بعد الموت أحيا وأوسع من حياة الدنيا وهو قوله ﷺ :

« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » . فالفرق بين الحياتين كالفرق بين النوم واليقظة قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) .

وكان يكفيهم تعليم رسول الله ﷺ الأمة كيف تزور الأموات؟ وتقول لهم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين فهل يأمرنا ﷺ أن نخاطب من لا يسمعنا على أن اعترافهم أن الحى ينفع دون الميت هو الشرك بعينه . لأنهم يعترفون بنسبة النفع إلى الحى وأما نحن فلا نعترف لمخلوق حيا كان أو ميتا بالاستقلال بنفع أو ضر فالله تعالى وحده هو الضار النافع .

مناجاة الزائر للولى

وهم يقولون أن الزائر يناجى الولى ، وهذه المناجاة لغير الله أفلا تكون هذه شركا ؟ ويدعون من دون الله من لا يستجيب لهم ؟ .

ونحن نقول : أن الادعاء بأن المناجاة لا تكون إلا لله ، هو إدعاء باطل . لأن المناجاة من الألفاظ الموضوعة وضعا عاما ، وهى فى كل شىء بحسبه ، وهى من الأوضاع الالهية التى شرعها تعالى لعباده أما له تبارك وتعالى حيث قال : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الآية . وأما لرسوله ﷺ حيث قال عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول) الآية وأما لعباده حيث قال سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان وتناجوا بالبر والتقوى) الاية . وقال تعالى (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) أى فالنصر واجب عليكم وفى قوله تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) وغير ذلك كثير . وفى الحديث « إذا كان أحدكم فى فلاة وخشى الهلاك فنادى يا عباد الله أغيثونى فإن الله يأتيه بعبد من عباده يرشده » قال ابن قيم الجوزية : اما ملك أو جن أو من بنى آدم .

وإن قال من طمست بصيرته : هذه خاصة بالأحياء ؟ قلنا له : من فى

الآخرة أقوى وأوسع حياة وكان يكفيهم ردعا وزجرا لهم حديث القليب قليب بدر السابق قريبا ؛ أو حديث : تعليم الرسول ﷺ الأمة كيف يقولون للأموات إذا زاروهم أو مروا عليهم ثم أو لم يكفهم أن أحدهم فى اليوم الواحد كم مرة يناجى فيها رسول الله ﷺ فى تشـهده فى الصلاة بقوله : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » فهل هم تركوا ذلك فى تشهدهم بعد موته ﷺ ؟ !! اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

واعلم أن المناجاة موجبة على المناجى أن يجيب من ناجاه وينصره بصريح الآى المتقدمة وبيان السنة فى ذلك متى استطاع إليه سبيلا . وقد قررنا أنه تعالى هو المرجع فى كل شىء حسبما أمر به سبحانه وتعالى ، وبينه رسوله ﷺ وهو المنعم على عباده فيمنح من يشاء ما يشاء من فضله الذى لا يحد . ألا ترى الحديث القدسى الذى يرويه أصحاب السنن والمسانيد وقال فيه ابن تيمية فى رسالة الفرقان : هو أصح حديث فى السنة وهو : « لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » الحديث . وله روايات وهذا العطاء والتفضل من الكريم جل شأنه لا يحرمه عبده فى حياته الآخرة التى هى أقوى من حياته الأولى فيستجيب الله تعالى لهذا العبد لنفسه أو لغيره حيا كان أو ميتا ، قال تعالى : (لهم ما يشاءون عند ربهم) الآية . وفق ما فى علمه تعالى .

وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه النبى ﷺ عن الدعاء عند ذكره القضاء والقدر فقال : « ذاك من القضاء والقدر » وعلى هذا

فطلب الزائر من المزور هو طلب من الله تعالى وهو الحق الثابت فى عقيدة المسلمين بأنه ما توجه إلا إلى مصدر من مصادر الحق جل وعلا وباب من أبواب رحمته تعالى ، ولم يخرج بذلك عن دائرة القضاء والقدر ، بل قد يكون الولى فى حياته الأخرى ممنوحا من ربه تعالى الإطلاع على ما يريده الزائر من ربه على يدى ذلك الولى وكل ذلك كما قلنا مرجعه إلى ما عند الله تبارك وتعالى .

ولا ينسى ذو عقل أن الحركة والسكون بيده تعالى ، لأنه عز وجل بعد بيان التشريع هو الموجة المحرك المسكن ، وهذه هى العقيدة السليمة لأنه إن لم يكن الأمر كذلك لاستطاع كل شخص أن يرجع شابا أو يحتفظ بقوته وحياته ما استطاع ؟ وهذا باطل بالعقل والنقل . فالعقيدة السليمة الصحيحة كل مخلوق مسير لامخير وفى الحديث الصحيح المروى عند البخارى وغيرة : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

ومن هنا تعرف معنى قوله ﷺ فى الحديث المشهور عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » الحديث . يروى بطوله : ولكن محط شبهتهم هاتان الجملتان منه فيستدلون به على منع سؤال عباده تعالى وهم لايعقلون له معنى ، لأنه لو كان المعنى كما يفهمون لانهدم التشريع جميعا ، فإنه مبنى على الأخذ فى الأسباب ، إذ يقول سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ : (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) ويقول تعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ويقول تعالى (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال) ويقول تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) الآية وفى الحديث : « والله

فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه ، وغير ذلك كثير من عموم الآى الكريمة والأحاديث الشريفة — ومن المحال مخالفة ذلك إذ الكون كله قائم على الاستعانة والتعاون :

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فهذه سنة الله تعالى فى خلقه ، (ولن تجد لسنة الله تبديلا) فهم لطمس بصائرهم يتكلمون بدون تعقل ولا شعور حتى يجعلوا من يسأل عباد الله مشركا !! وإذا كان هؤلاء لا يبالون بمفارقة إجماع المسلمين فهل يبالوا بالخطأ والتضليل فى فهم الآى والأحاديث ؟ .

وأما معنى الحديث الشريف (إذا سألت فاسأل الله) الحديث . أى إذا سألت مخلوقا أو استعنت به فلا تغفل عن الله سبحانه وتعالى ، لأنه هو الخالق لأفعال العباد قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) فهو من ارشاد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم لأمته أن لا يعتقدوا أن للمخلوق فعلا مستقلا به عن فعل الله تعالى فإن الغفلة عن أن الله تعالى هو الخالق لأفعال العباد تجر إلى قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون).

وهذا الحديث نفسه أثبت للعباد أنهم ينفعون ويضرون ولكنهم غير مستقلين بذلك ، فالله تعالى وحده هو الضار النافع بأيدى عباده ، قال تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وقال تعالى : (ويذيق بعضكم بأس بعض) .

وان تشأ فقل علم الله تعالى بأن هؤلاء الضالين سيظهرون لجعل كلام الذى لا ينطق عن الهوى موافقا للقرآن الذى يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين — كهذا الحديث . وحديث الجارية .

وحديث : ربنا الذى فى السماء . مما يتمسكون به ولا يعقلون له معنى .

ومن أعجب وأعرب أمرهم قول بعضهم : ان الزائر للولى يقف أمام قبره وهو أكثر أدبا منه بين يدى ربه فى صلاته !! فكيف يجترىء قائلهم على هذه الفرية ؟!! (أعنده علم الغيب فهو يرى) اللهم ان هذه دعوى ليس فى الدنيا أغرب ولا أعجب منها ؟ !!.

وهذا سيد العالمين الذى علمه ربه علم الدنيا والآخرة يجيب سيدنا خالد بن الوليد بقوله الشريف (انى لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم) وفى حديث آخر (وهل فتشت على قلبه) اللهم ألهمنا الحكمة والصواب .

نبذة فى النذر

وإذا علمت ذلك ، فاعلم أن الكلام فى النذر للأولياء والذبح لهم يكون كذلك ، لأن النذر الذى يعمل باسم الولى إنما هو لله تعالى . لأن النذر لا يعمل إلا فى مقابل نعمة تجرى للناذر ، ولا يجرى النعمة على الناذر إلا من بيده ملكوت كل شىء ، لأن الولى لا يملك شيئا ، ولأنه تعالى يقول (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) .

والآية هى المعجزة فى حق الرسول وهى الكرامة فى حق الولى على ما قرره علماء الأمة الإسلامية ، فإن شاء أجراها وان لم يشأ لم يجرها ، لأنه هو الفعال لما يريد ، وأما قول الفقهاء : النذر لا يكون إلا لله تعالى فهو رد على من ينذر لمن يعتقد أن مع الله إلها آخر كاليهود والنصارى وغيرهم ممن يزعم أن مع الله آلهة أخرى ، وينذرون لهم . وأما المؤمن فاعتقاده أن الله تعالى هو المنفرد بالفعل ، ان شاء فعل ، وان لم يشأ لم يفعل وحده

لاشريك له ، وان الا ولياء مصادر لظهور نعم الله تعالى على عباده النـاذر والمنذور له .

وأما حكم الذبائح فهو : كذبحها للأضياف ، هل سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أشرك لما ذبح لأضيافه عجلا سمينا ؟ وهذا الذبح كان لمخلوق وأن قالوا هذا إنما يكون للأحياء الذين يطلب تكريمهم وأما الأموات فهل يأكلون حتى يذبح لهم فقل لهم ان الذبح للضيف ما هو إلا لبيان فضله عند الله تعالى لما خصه تعالى به من عظم الشأن لأنه ضيف ولما يترتب على ذلك من اظهار نعم الله تعالى وتحدث الذابح بها وليدارى به عن عرضه . وخاصة اذا كان من الموسرين فيكون داخلا تحت مصداق قول الصادق المصدوق ﷺ (كل ما دارى به المسلم عن عرضه فهو صدقة) .

وأيضا ان المذبوح له لم يأكل من الذبيحة إلا اليسير أو ربما تذبح له ولا يأكل منها لمانع طبى أو عارض شرعى كما يحصل ذلك كثيرا . وأن الذبح للمذبوح له لبيان فضله كما قدمنا . وفى حق الولى فى مقابل نعمـة الكرامة أو الحب ودوام الود لآل البيت رضوان الله تعالى عليهم الذين أوجب الله تعالى على عباده المؤمنين ودهم . وأهم شيء فى ذلك كثرة الأكلة ليعود مزيد الثواب على الذابح والمذبوح له والولى فى قبره أحيا من حى الدنيا كما هو صريح القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وسيأتى لك بأوضح من هذا إن شاء الله تعالى :

ومن غفلتهم عن ادراك الحقائق جهلهم بسـنة الله تعالى فى خلقه وانكارهم أن الشيطان رسول الشر . وقد قال لى قائل انه اطلع فى كتاب الطبقات لسيدى عبد الوهاب الشعرانى على خطبة قال فيها صاحبها (الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده وأشهد أن

لا إله إلا الله وأن ابليس رسول الله) فقلت له هذا حال العارفين بربهم الذين علموا أن مبدع الكائنات خالق الأرضيين والسموات ومن فيهن أبدع بقدرته ما فى الوجود على حالتين دنيا وأخرى وجعل فى الدنيا الخير والشر والآخرة كذلك .

ومن أهم ما وجد على حالتين العقائد التى عليها مدار تشريع الحق عزوجل لعباده . وهى أهم ما بنى عليه هذا الوجود . ولما كان الأمر كذلك جعل الله تعالى وجود المكلف بهذا على حالتين أيضا . وجعل ببديع صنعته تركيبه قابلا للحالتين : الخير . والشر . ليقابل بهما المآل فى الآخرة . ثم رحمة منه جل وعلا لم يتركه على ذلك هملا . بل لما كان تكوينه أيضا على النسيان جعل له من يوقظه وينبهه من جنسه وهم الأنبياء المرسلون عليهم الصلاة والسلام — وهؤلاء يدعونه لتوجيهه إلى ناحية الخير ويذكرون له ضدها ليحذرها . وهى الشر .

وجعل للناحية الأخرى وهى الشر رسولا يدعو إليها ويزينها ويزخرفها للناس فمن سبقت عليه الشقوة والعياذ بالله استجاب لدعوته وصار محاربا بكل وسيلة شيطانية لأهل الخير وهم الأنبياء والرسل ومن على قدمهم من المؤمنين الصادقين — ولو لم يكن هذا الداعى إلى الشر موجودا لكان النقص ظاهرا فى المكونات — وللزم عليه التزام الناس حالة واحدة وهو غير الواقع قال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ولكان ارسال الرسل عبثا لوجود الناس على الفطرة والخير المحض — ولما حاد واحد منهم عن التوحيد المراد له تعالى — ولكان الناس بتكوينهم غير مستعدين لقبول الشر كالملائكة ولكان وجود أحد المآلين وهو النار عبثا .

ولكن لما كان الوجود كله من وضع بديع الصنع تعالى شأنه كان اقتضاء وجود داعيين متضادين لازما . داع يدعو إلى الخير . وداع يدعو إلى الشر . لتحقق ما فى الوجود على مقتضى الحكم العالية . المقابلة . والمماثلة. مصداق قوله جل وعلا على لسان نبيه ﷺ (رحمتى غلبت غضبى) الحديث. وهما الأصبعان المرادان فى قوله ﷺ (ما من قلب عبد من عباد الله إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن) الحديث . فمن هنا كان كل ما فى الوجود على حالتين الرحمه والغضب — حتى فى تكوين أهل الخطاب خلقت الملائكة أولا بصفة الرحمة والجن ثانيا بصفة الغضب وآدم ثالثا جمع فيه الصفتين (الرحمة والغضب) حتى تراه مشتملا عليهما فى تكوينه بدليل ما يصدر منه كالحلم والاساءة والكرم والبخل والجرأة والجبن وكل ما تراه فيه متضادا قال تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى بصفتى (صفة الرحمة وصفة الغضب) وهما الأصبعان المذكوران فى الحديث السابق .

ولنذكر لك حادثة عرضت لى فى أحد دروسى لهذه المناسبة .

وهى أن أربعة من العلماء جلسوا سويا وقال أحدهم سائلا : هل الله عز وجل كان راضيا عن ابليس وقت أن كان رئيسا للملائكة أو غاضبا عليه ؟ وهل كان غاضبا على عمر بن الخطاب وقت أن كان يئد ابنته أو راضيا عنه ؟ فكان هذا السؤال شديدا فى نفسى لأنى لم أسمع به من قبل ولا بنظائره.

ولكنى أجبت فيه بمقتضى معرفتى لله سبحانه وتعالى فقلت ان الله تعالى مخالف لجميع الحوادث وخاصة بنى آدم الذى هو محل نظره من خلقه تبارك وتعالى . وأن الأمور عنده جل وعلا آنية . يعنى ليس مآلها بتجدد الأعمال فهو خالق لموجوداته وما يعملون . فخلقه تعالى لإبليس للشر وأنه مصدره

فهو غير راض عنه ولو كان رئيسا لأكبر طوائف الملائكة . وما خلقه جل وعلا إلا للتمييز به بين الخير والشر .

وأن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ما خلقه إلا للخير ولو كان قام بوأد جميع بنات عصره . هذا وان كان لم يظهر الخير فيه واضحا لأنه لم يأت الزمن الذى يظهر الخير فيه واضحا . كذلك ابليس لم يأت الزمن الذى يظهر فيه الشر واضحا . ولكن هناك أشياء تظهر بها ومنها بوادر الخير والشر يعرف منها المآل كعمر رضى الله تعالى عنه كانت مبادئه تلوح عليه لحبه المنعة والعزة والشرف بعكس الأول لحبه الأنفة والعظمة والظهور والكبرياء وماكان فى كل منهما بتكوينه وفطرته التى فطره الله عليها ولكن لم يأت الزمن الذى شاء الله تعالى فيه اظهار ما خلق كلا منهما لأجله .

ولا أذهب بك بعيدا فهكذا حال الناس الآن وما قبل الآن ترى الواحد منهم جامحا عن طاعته لربه ولكن ميله للخير أقرب فيوفق ويعمل للخير المحض ويختم له بخير ومنهم من يكون فى ظاهره مطيعا . ولكن حبه للشر أكثر فيسبق القضاء فتسوء خاتمته والعياذ بالله تعالى فهذا من مصداق قول الصادق المصدوق ﷺ (وان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) الحديث .

فسكتوا جميعا وبسكوتهم زادونى حيرة . هل هم رضـــوا بالإجابة أو هم غير راضين . فلو ردوا على بالانكار لقاومتهم بالإجابة ولو أيدونى لاسترحت للإجابة . ولكن سكوتهم حيرنى .

فلما أصبحت اجتمعت بنحو عشرة من العلماء بالمكتبة الأزهرية الكبرى وعرضت عليهم المسألة فالجميع قالوا ان الله تعالى كان راضيا عن

ابليس وقت رياسته للملائكة وكان غاضبا على عمر رضى الله تعالى عنه وقت وأده لابنته فقاومت الجميع وصددتهم بالكتاب والسنة فأتى واحد منهم برئيس الوعظ والارشاد بالادارة العامة بالأزهر وقتئذ وحاول اقناعى فلم يستطع وانتهى الوقت وصارت لبانة فى ألسنة العلماء. وكان فى شهر رمضان وكل واحد منهم يسمر فى جهة فأصبحنا وقد دخل على فى المكتبة الذى كان تزعمهم فى اقناعى والذى جاء برئيس الوعظ والارشاد فقال مبتدرا — لأجل ذلك لم نستطع اقناعك. فقلت فى أى شىء. فقال فى مسألة البارحة بخصوص عمر بن الخطاب رضى الله عنه. وابليس عليه اللعنة. فإذا هى منصوصة فى تفسير القرطبى فى الجزء الأول منه.

فقلت والله لا أعلم ولا أدرى أنها منصوصة. إنما عرفت الآن أن السائل كان يقصد تعجيزى.

فالحمد لله تعالى والشكر له جل وعلا حيث جعلنى موافقا لأحسن مفسر محدث رضى الله تعالى عنه وعنهم أجمعين فسبحانه لا نحصى ثناء عليه جل ثناؤه وتعالت أسماؤه لا رب غيره ولا معبود سواه.

ومن اشكلات الناس كسابقيهم يقول بعضهم حيث ان الحركة والسكون بيده تعالى وهو القاضى بأفعال العبد أزلا وخالقه ميسرا لهذا العمل الذى خلق لأجله فلآى شىء يشقيه ويدخله النار إذ لو كان للعبد أى اختيار ما أقبل على عمل الشقاء المفضى إلى العذاب.

وانا نقول هذه مبادىء الكافرين ومن على قدم ابليس اللعين من المشركين وغيرهم كما قص تبارك وتعالى علينا عقيدتهم فقال تعالى (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل

إلا البلاغ المبين) وقال تعالى (سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون إلا الظن وان أنتم إلا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) فأمثال هؤلاء ومن نشأوا على استعداد وقبول الشر يوحى إليهم الشيطان لعلهم يكونون من حزبه وشيعته ويقول بقولته ناسجا على منواله حيث قال للملائكة لما قالت له لِمَ لمْ تسجد مع الساجدين فقال اللعين ولم خلقنى للشر ولم يجعل عباده على الخير الصرف ولما خلقنى كذلك فلأى شيء يعذبنى .

فهو وهم يريدون نسبة الظلم لله تعالى وهل كان للواحد منهم مع الله مشاركة حتى يقترح عليه ويأمره ويكون هو أعلم منه سبحانه وتعالى فيعلمه كيف يكون التصرف فى الموجودات من عباده ويرجح الأحسن على الحسن ؟!! ولأمر ما وقفت الملائكة سكوتا عن اجابة اللعين . ونحن نقول ان عقلاء الأمة الإسلامية الذين هم على قدم سيد العالمين أجمعوا على أن القضاء والقدر من الأسرار الإلاهية التى لا يمكن للبشر الخوض فيها . وما على العبد إلا أن يمتثل أوامره جل وعلا ويجتنب نواهيه بقدر الاستطاعة ويفوض الأمر له سبحانه وتعالى مع الاجتهاد فى ذلك رجاء الخير والله تعالى فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وقد وفيت الكلام فيما يأتى مع ضربى للأمثال حتى أجابت فيه كل شبهة بتوفيقه تعالى وسيأتى ان شاء الله فى محله .

ومن نزغات ابليس :

طعنهم على الصوفية ، الذين هم فى أعلى مراتب الدين الإسلامى والتصوف هو سنة الله تعالى فى خلقه من لدن آدم عليه السلام إلى أن

تقوم الساعة وكان أهله يسمون فى الأمم الماضية : بالربانين والقسيسين والرهبان والأحبار ، كما قص تبارك وتعالى علينا ذلك فى كتابه العزيز وتسموا فى العصر المحمدى . فى هذه الأمة بهذا الاسم نسبة لأهل الصفة الذين كان أمرهم إلى الله تعالى صرفا (يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) .

فلو كان لهؤلاء القــدم الراسخة فى العلم ، والبحث عن كيف تدون الدين الإسلامى كما بحثوا وتخصصوا فى الضلال وتلمس الأدلة الواهية لشبههم . لعرفوا أصل دينهم ، وكيف انحصر فى أقواله وأفعاله وتقريراته ﷺ ؟ وكيف جمع جبريل عليه السلام لحضرته ﷺ أمور هذا الدين فى ثلاث حين سأله جبريل عليه السلام :عن الإسلام ، والإيمان ، والإحسان؟ وكيف قيض سبحانه وتعالى ووجه من عباده لدينه من قام بكل أمر من هذه الأمور الثلاثة فالفقهاء لبيان الإسلام . وعلماء التوحيد لبيان الإيمان . والصوفية لبيان مقام الإحسان الذى هو أعلى مراتب الدين .

لأنا قد عرفنا أن الفقهاء بينوا جميع الأحـــكام التى اشتمل عليها الإسلام من المعاملات مع الخالق جل شأنه ومع خلقه . وعلماء التوحيد . قاموا ببيان ما لابد منه من عقائد الإيمان ومعرفة خالقهم بالآيات المشاهدات، وما يجب الإيمان به من الأمور المغيبة حتى صارت يقينا محققا ، وخاصة ما يتعلق بالمعاد الذى جاء فى الصحيح عمن لاينطق عن الهوى ﷺ

وبقى معنا الأمر الثالث للدين وهو الاحسان فمن قام به ؟ غـــير الصوفية من جميع معانيه وقد أجمع عقلاء الأمة الإسلامية على ذلك سلفا وخلفا .

ويا ليتهم وقف طعنهم عند حد الطعن فى المتصوفة الدخلاء على الصوفية فحسب ، بل تناولوا عموم الصوفية كما شحنت به جميع كتبهم والتعليق عليها واخراجهم فى كل امساكية لشهر رمضان وليس الغرض من نشرها إلا الطعن فى عموم الصوفية والأئمة الفقهاء الأربعة . ولرئيس أنصار السنة تعليق على كتاب الجواب الكافى لابن قيم الجوزية كله طعن ولعن فى الصوفية.

فلست أدرى هل غرضهم الطعن فى أصل الصوفية ؟ وهى حقيقة من حقائق دين الله تعالى (الإسلام) من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . وكانت تسمى قبل الدين المحمدى بأسماء غير الصوفية وفى الإسلام أى الدين المحمدى الآن تسموا بهذا الاسم على ماذكرناه آنفا وكما سيأتى ما هو أوضح وأبين من ذلك . أو غرضهم الطعن فى المتصوفه أى الدخلاء على هذه الطائفة الشريفة ؟ فإن كان غرضهم ذلك فهو باطل من عدة وجوه ، وأظن أنهم لا يعنون الدخلاء لئلا يتناولهم الطعن لأنهم دخلاء على العلم والعلماء والإسلام والمسلمين بل خطرهم أضر على جميع المجتمع الإنسانى لأنهم أداة عاملة هدامة فى نواحى كثيرة من أصل الدين والتفرقة بين المسلمين فى العقائد المشروعة بأحداث الخلاف على الدوام وهم مأجورون من الخلق مأزورون من الخالق.

نقول لهم : أولا — ان المتصوفة يتشبهون بالصوفيه الحقيقيين لعلهم يحذون حذوهم ويكونون مثلهم وقد قال بعض الفضلاء : فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم . . ان التشبه بالرجال فلاح أو رجاء أن يصلح الله حالهم ومآلهم فيصبحوا من أفاضل الصوفية وقد شوهد ذلك كثيرا ، وكم من شقى أصبح مهتديا صالحا .

ثانيا — ان الطعن فى الدخلاء من المتصوفة كان ينبغى أن يتناول فى

العلماء الآن لأنهم غير السابقين على خط مستقيم فلا وجه لقصر الطعن على دخلاء المتصوفة .

ثالثا — ان الطعن فى الدخلاء أيضا من المتصوفة يتناول الطعن فى جميع أفراد المسلمين لأن ماهم عليه الآن غير ماكان عليه السابقون .

رابعا — يتناول الطعن أيضا جميع أمراء المسلمين الآن ومن يسند إليهم تنفيذ أحكام الدين حسبما أمر به رب العالمين وحث على العمل به سيد المرسلين ﷺ من القضاة والولاة وما شاكلهم لأن ما هم عليه الآن غير ماكان عليه السابقون ، وهذا واضح لامرية فيه ولا ينكره إلا الماكرون .

فكيف يقصرون الطعن على الصوفية أجمع من غير دليل ولا برهان لاعقلا ولا نقلا إلا ما يتلمسونه من الأمور التى يعجزون عن ادراكها من بعض كلام الصوفية أو ما يدون عنهم من خرق العادات التى جعلها الله تعالى كرامات للأولياء كما جعلها معجزات للأنبياء .

وكيف يصح لمن نشأ فى غير جهة لايعرف لغاها ؟ ولا مدى فحوى معناها ؟ ويكون هو دخيلا عليهم أن يحكم على عاداتهم واصطلاحاتهم ، وياليته يطلب منهم تلك الأمور الغائبة عنه ، غير ناقم ولامعترض عليهم ، فالحق والحق أقول ، أنهم هم الدخلاء على العلم والعلماء والإسلام والمسلمين للتفرقة والتشقيق بين المسلمين وسيأتى توضيح ذلك فى باب الكلام على الصوفية ان شاء الله تعالى .

إحقاق الحق

اعلم ان كل خارجى زائغ عن الحق لن يهديه الله إلى معرفة شىء منه أبدا . ولاتظن ولايخطر ببالك أنه قد يهتدى ولو إلى مسألة دون غيرها لاتعتقد ذلك أبدا لأن الله تعالى خالقه قد وصفه بأنه أعمى فى هذه

الدنيا وفى الآخرة قال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ؟ وهل أبصرت أعمى البصر يبصر أحيانا ويعمى أخرى كلا ؟ فلا شك أنه أعمى فى جميع لحظاته ولو قال لك قائل أنه وافق الإجماع فى مسألة كذا . فقل له كذب وافترى إذ لو ناقشته أو بحثتها لا تجده منطويا إلا على خبث فهم كمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين .

الفصل الثالث

نذكر فيه وفيما يليه أحوال المعارضين لأهل الحق وما ورد فى وصفهم من الكتاب والسنة ليستنير بذلك ذهن القارىء الكريم ويعرف ما عليه أهل الضلال وما عليه أهل الحق وكيف كان أهل الضلال ؟ وكيف هم الآن ؟ وما حالهم إلا كحال من كان على قدم ابليس قبل الإسلام ممن عارضوا الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المسلمين .

وهؤلاء قد انتزعوا من ذلك الضلال ما يوافق من كان على قدم ابليس فى رأيهم لأن الأصل فى الضلال واحد . فى الالهيات . والنبوات . والمعاد . وقد تشعبت من كل واحدة منها شبه كثيرة على ما بينا وسنبين .

فأنت ترى الآن مدعيهم من كاتب ومحاضر ويدعى أنه عالم عامل والحق أنه (عامل عالم) كسابقه . حذوك النعل بالنعل . وسابقه كسابقه وسابق سابقه كسابقه . وهكذا إلى أن ينتهى سنده الشيطانى إلى أول ضال منهم .

على أن أول ضال لا يقول بها عن حق وحقيقة ولكنه يريد بها تضليل من شاء الله تعالى اغواءه فى اتباعه واجابة دعوته ضد الأنبياء والمرسلين ومن على قدمهم من المؤمنين المسلمين قال تعالى (إلا من اتبعك من الغاوين) .

واذكر لك مثلا واحدا الآن لتحقق منه فى الرد — وهو أن أول ضال منهم الذى قد جمع لهم مبادىء الضالين — اعتقد أن الله تعالى فى السماء بعد أن أثبت له تعالى عن ذلك علوا كبيرا ما للحوادث من الصفات التى تشبه صفات الحوادث والحركات والسكنات وما أشبه ذلك فما استدل به على ذلك ما حكى الله تعالى فى كتابه العزيز الذى كان يعتقده فرعون وعارض به نبى الله ورسوله .

قال تعالى (يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع الى إله موسى) فجعل ذلك الضال قول فرعون حقيقة وأخذ منها دليلا له ، وبذلك يكون قد اتخذ فرعون اماما له . على أن الله فى السماء ، وضم إليها الآيات الأخر : (أأمنتم من فى السماء) (إليه يصعد الكلم الطيب) (إنى متوفيك ورافعك الى) كما ستعرفه فى ردنا عليه عند ذلك تقريبا . ان شاء الله تعالى وبتلك الأشياء يعرف القارىء أيضا أهل الحق وما هم عليه ، فقد جملت شبه الضالين ومن على شاكلتهم التى لا تكاد تخرج عن شبه ابليس أولا ، وأهل الكفر والعناد والزيغ والضلال ثانيا .

تلك التى جهل الحقيقة فيها ، من خالف الإجماع والسنة والكتاب . وقلد تقليد الأعمى امامه الضال المضل وشيخه الذى لم يعرف أن القرآن الكريم جاء بجميع تلك المستحدثات وقد بينته السنة المطهرة بأجلى بيان ، ولكنه لسوء فهمه وعمى بصيرته لم يفطن ولم يتنبه لذلك لتظهر حكمة الله تعالى فى وجود الخلاف والنزاع فى الحياة الدنيا على الدوام كما هى سنته تعالى فى هذه الحياة ، وليكون من مصداق قول الصادق المصدوق ﷺ « وستفترق أمتى » الحديث . فلا محالة من وقوع ذلك .

ولذا لم يوفق للنظر فى آيات الله تعالى التى جعلها دلائل على معرفته ، ولا فى كتابه العزيز ، ولا لبيان سيد المرسلين ﷺ ولم يقتف أثر العلماء العاملين الذين نصبهم الحق عز وجل لحفظ دينه ، وقد استمر الأمر على ذلك سبعمائة سنة مجمعا عليه ممن عرفوا ذلك . وأن أصله الكتاب والسنة.

ثم جاء بعد ذلك من جمع أساطير الخارجين على إجماع المسلمين ونشأ شاذا مارقا من هذا الإجماع متبعا لنفسه هواها ، ولقد أحسن من قال :

إذا حكم المرء الهوى فى قضائه
على ما ادعاه فهو أظلم حاكم
وهل يتوق الجور من هو ظالم
إذا اشتبهت بالعدل طرق المظالم

تراه مجتهدا مقلدا فى آن واحد يقلد أحد الأئمة الأعلام ويدعى نسبته لمذهبه ، مجتهدا فى المخالفة لأئمة المسلمين فى مستحدثات الكون ، ولم يدر أن القرآن الكريم جاء بكل ذلك .

ولو لم يكن القرآن خير كفيل ببيان جميع ما يحدث فى الكون فى الدين والدنيا إلى أن تقوم الساعة ، بل وبعد دخول أهل الجنة الجنة . والسنة المطهرة كذلك . لكان ذلك قصورا فى القرآن ، وتقصيرا من السنة فى البيان ، وذلك محال . أو يلزم عليه بطلان قوله تعالى : (تبيانا لكل شيء) (وتفصيل كل شيء) (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) أو يلزم عليه اقتضاؤه لزمان دون كل زمان ، مع بطلان الرد إليه فى قوله تعالى :) فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تاويلا) أو يلزم عليه عدم صدق

الصادق المصدوق ﷺ فى البيان الذى قال فيه : « ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » وفى أخرى : « وعشرة أمثاله » الحديث . رواه الإمام أحمد فى مسنده .

هذا وكم ترى لهم من الأحكام على البرءاء من المسلمين بالكفر والشرك والزيغ بأن يأخذوا ببعض الحديث المروى فى صحاح الكتب ويستدلوا على أغراضهم الفاسدة ويتركوا بعضه كحديث « وإن أناسا من أمتى ليذادون عن الحوض » فيقولون لو كان يعرف من ضل من أمته ما قال : « هلموا إلىّ » حتى تقول له الملائكة « غيروا وبدلوا بعدك يا محمد » فيستدلون على أغراضهم بصدر الحديث ، ولا يأتون بباقية ، لأنه يعارضهم لعدم فهم معناه . وآخر الحديث الذى لم يأتوا به هو قوله ﷺ : « والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى » الحديث جميعه يرويه البخارى .

وكقولهم فى الأثر الذى لم يصح منه فى نظر البخارى وعلى شرطه إلا قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاء حاجا فقبل الحجر الأسود وقال : أشهد أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ويتركون باقية المروى بتمامه عند أحد أصحاب الكتب الستة التى هى كالبخارى فى الصحة بإجماع علماء الأمة ، ولم أرشدهم إليه ، ولا إلى المكان الذى هو يروى فيه لابقائهم على جهلهم وعماهم وقصر باعهم فى الإطلاع وها هو : لما قال عمر رضى الله عنه ذلك ، قال له على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : لا : يا أمير المؤمنين : انه يضر وينفع انى لأشهد أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتى هذا الحجر يوم القيامة وله لسان زلق يشهد لكل من استلمه » فهو يضر وينفع فقال عمر رضى الله عنه : أعوذ بالله تعالى أن أعيش بأرض لست بها يا أبا الحسن ، لولا علىّ لهلك عمر .

وكقولهم فى الحديث المروى عند مسلم : «من حلف بغير الله فقد أشرك » لايفهمون له معنى . ومسلم هذا رضى الله عنه يروى الحديث أن رسول الله ﷺ حلف بغير الله فى قوله : « أفلح وأبيه إن صدق » وتؤيده رواية أبى داود عن الفجيع بن الربيع الذى قال له ﷺ : (ذاك وأبى الجوع) الحديث فهم لطمس بصائرهم لايهتدون إلى معرفة الحق كما سنعرفه فى الرد عليهم.

ومن أعجب أمرهم أنك تراهم يقولون بالإجماع والقياس والاستنباط للإستدلال حينما يحتجون وينكرون ذلك كله عند قيام الحجة عليهم . او يقولون ببعضها وينكرون بعضها الآخر فلا تكاد تحكم عليهم بأنهم مقلدون أو مجتهدون ، فهم من قبيل من قال الله تعالى فيهم :

(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) ويريدون أن يبدلوا معانى كلام الله وكلام رسوله على حسب أهوائهم — قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) .

هذا وبتوفيقه تعالى سأعقد لكل شبهة من تلك الشبه بابا مستدلا على صحة ما أقول ، وبيان وجه الإجماع عليه صحة الأخذ به بالدليل العقلى المطابق للدليل النقلى بالبرهان والمشاهدة من آيات الله تعالى البينات الواضحات موازنا لك بينها وبين الآية من القرآن . أو الحديث الصحيح من السنة حتى تراها ناطقة لك بأصرح بيان وترى السنة جلتها بأوضح تبيان إن شاء الله تعالى .

قد تقدم لك حصر شبه الضالين ومن على مبادئهم ، وهى اثنتان وسبعون شبهة عدد فرق الزيغ والضلال كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ ولم يفطنوا إلى أنهم هم الفرقة المكملة للاثنتين والسبعين فرقة ، أو أنهم يمثلون جميع هذه الفرق .

وكان الأجدر بهم أن يرجعوا إلى الكتب المؤلفة فى بيان فرق الضلال والإلحاد ، ليعرفوا أنفسهم من أى فرقة هم ؟ أو إلى شرح هذا الحديث الشريف « ستفترق أمتى » .

ولقد جعلهم الشارع من هذه الفرق . ولقد صدق ﷺ فى قوله : « إن لم يكونوا هم فمن هم ؟ » رواه البخارى كما سيتضح لك . وبالرغم من هذا يدعون انهم هم الأمة الناجية . كما تدعى كل فرقة أنها هى الناجية حتى الفرقة التى تقول : نزل الوحى على علىّ وغلط جبريل وأعطاه لمحمد ـ وكما تدعى اليهود والنصارى والمجوس والطبيعيون وباقى الفرق .

وليت شعرى من المراد بالأمة فى قوله تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وفى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للنـاس) وفى قوله تعـالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وفى قوله ﷺ « سألت ربى أن لا تجتمع أمتى على الضلالة فأعطانيها » الحديث . وفى أخرى : « لا تجتمع أمتى على الضلالة » الحديث . وسيأتى . وهل المراد بالأمة السواد الأعظم من المسلمين كما بينه سيد العالمين ﷺ فى الحديث ؟ أو الشراذم القليلة وهى الفرق والجماعات التى قال تعالى فيهم : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) .

ومع هذا كله ، لم يشعروا أن شبههم فى الإسلام لم تخرج عن شبهة أهل الكفر والعناد لتوافقهم معهم فى الإلهيات والنبوات ، والمعاد . هذه الثلاث : هى الأصل لجميع شبه ابليس اللعين وهى سبعة كما ستعرفها ، ومرجعها إلى هذه الثلاث لاغير فى اعتراضه على الله تعالى وانكاره على آدم عليه السلام واختياره للخير الصرف . وهذه ترجع إلى واحدة فقط ، وهى الحسد . ولا يخفى عليك حال الحسد ، نسأل الله تعالى العفو والعافية . ولقد أحسن من قال :

كل العـــداوة قد ترجى إزالتها

إلا عـــداوة من عاداك عن حسد

فقد بان لك ، إن الفرق المخالفة هو غير الأمة التى قد عصمها الله تعالى من الزيغ والضلال . وأنها خير أمة تهدى إلى الحق وبه تعدل وهى السواد الأعظم من المسلمين وأن هذه الفرق كلها فى الظاهر تنسب لأديانها ، وفى الباطن تابعة لإبليس ، ونسبتهم للأديان كنسبة إبليس الى العلم أو المعرفة . بل وطمعهم فى نيل مآربهم فى الدنيا والنجاة فى الآخرة ، كطمع إبليس فى الجنة .

ومن أجل هذا ، كنت بتوفيق الله تعالى بمجرد النظر إليهم فى الدرس اعرفهم بسيماهم قبل أن يسألوا ، لأن الله تعالى جعل على الضـال مسحة مخصوصة ، يعرف بها قال تعالى : (يعرف المجرمون بسيماهم) إذ تجد ما فى قلوبهم منطبعا على وجوههم . جل الصانع المبدع ، جعل على وجه كل فرد من أنواع الموجودات علامة تدل على ما اشتمل عليه فى التكوين واضحة على صورته ، فالحاذق يعرف من الخامل ، والذكى من البليد ، والضال من المهتدى . وهكذا فى كل نوع ثم أخبر جل وعلا عن ذلك فى كتابه العزيز الذى فيه تفصيل كل شىء قال تعالى : (بل آتيناهم بذكرهم

فهم عن ذكرهم معرضون) . (تعرفهم بسيماهم) . (ولتعرفنهم فى لحن القول) . (إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا) . فهؤلاء ومن على شاكلتهم ، لايخفون على من نور الله تعالى بصيرته . وأن زعماءهم يعملون بهذه الدعوة لغرض خسيس دنيوى ، بعقيدة ومبادىء المارق من الدين المفارق للجماعة الخالع لربقة الإسلام من عنقه ، المقلد لسابقيه، الذين أطبق علماء الأمة وأفاضلها على أنهم ضالون مضللون خرقوا الإجماع وسلكوا مسالك الإبتداع . وسيأتى لك إن شاء الله تعالى بيان ذلك مفصلا .

فكنت أسمع سؤال الواحد منهم ، وأجيبه بما أمرنا الله تعالى بالنظر فيه ، وبما كان يجيب به ﷺ أهل النظر . واتبعت فيه أيضا ارشاد أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله تعالى وجهه لسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما حين بعثه لمحاجة الخوارج فقال : لاتحاجهم بالقرآن فإن القرآن حمّال ذو وجوه ، بل حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصا .

فبتوفيق الله تعالى سلكت بهم نهجا لم يفهموه ، وطريقا لم يخطر لأسلافهم ببال ، وهم لم يسمعوا به ولم يعبروه ، ولذا أقطع به ألسنة القائلين ، وأطمس به أعين المضللين ، وأنور وأثبت به عقائد الموحدين المهتدين . تلكم الأدلة العقلية التى لايمكن لبشر نقضها ، وأحملهم على النظر فى سر التكوين ، وبيان سر تكوين الحق عز وجل للموجودات وآثارها ، ومزايا هيئتها وأشكالها وهى الآيات التى أقام الحق عز وجل بها البرهان على هؤلاء وأمثالهم من كشف حالهم وبيان مآلهم . تلكم الآيات التى قال الله تعالى فيها : (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أى من كان فى هذه الدنيا أعمى القلب لايبصر مرشدا ، ولم ينظر فى آياتنا

التى نصبناها دلائل على بديع صنعنا ، وجميل فعلنا ، كان فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة . اهـ بيضاوى . ولما كان لا يعول إلا على ما يراه ظاهرا وأن الباطن والبصيرة لم يعول عليهما عاقبه الله تعالى بعمى بصره فى الآخرة، ولذا يقول لربه جل وعلا (رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

هذا وكم حث الحق عز وجل عباده فى كلامه العزيز على النظر فى تلك الآيات والتفكر فيها ، وامعان النظر فى أنها آثار الصفات . وقد جاء فى بيانه ﷺ بأوضح دليل وأصرح تبيان . وأجمعت علماء الأمة سلفا وخلفا على ذلك البيان ، ولكن بينه وبين عقائد المخالفين منافرة تامة وهى عقبة كؤود فى حناجرهم لا يستطيعون صرفها ، ولا يحاولون تأويلها ، ولا إخراجها . بل هى أثبت إليهم من أحد أعضائهم فى أجسامهم . فهم من قبيل الذين قال الله تعالى فيهم : (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقال تعالى : (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) وقال عز شأنه : (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) .

ويا ليتهم مع مخالفتهم هذه لاجماع المسلمين ، ومفارقتهم لهم ، يقطعون ألسنتهم عن البرآء من المسلمين ، بل ينسبون إليهم التضليل والشرك والمخالفة ، ولم يفطنوا أولم يستيقظوا من غفلتهم أن الأمة ، والجماعة ، والسواد الأعظم فى أى جانب حتى يركنوا إليه ويعولوا عليه ويحسبوا أنفسهم أنهم منهم . اللهم نور بصائرنا بنور معرفتك يالله .

تنبيـــه

بحوله وقوته تعالى نذكر للقارىء الكريم كيفية ما نحن بصدده الآن ، حتى إذا ما قرأه بقلب واع يخرج منه بعقيدة سليمة صحيحة . ودين كريم قد ارتضاه الحق عز وجل دينا لعباده بمقتضى صريح كلامه العزيز . وبيان رسوله الكريم . وعليه أجمع عقلاء الأمة الإسلامية سلفا وخلفا . وهو أن نذكر أولا : الشبهة التى ضلوا بها ، وخالفوا فى فهم معناها جميع الأمة الإسلامية . وبيان وجهة نظرهم فيها ، وسبب المخالفة ، ومن قال بها قبلهم إلى من أسس هذه الضلالات . وجمع لهم كل ما فى كتب المخالفين للأمة الناجية من المسلمين من قبله . من الحرورية ، إلى المعتزلة ، إلى الخوارج ، إلى القدرية ، إلى المنافقين ، الذين كانوا فى عصر النبوة والصحابة إلى ضلالات إبليس التى أضل بها الضالين من قبل ، ضد جميع الأنبياء والمرسلين ومن على قدمهم من المؤمنين المسلمين .

وعليك أن تعلم أن الله تعالى ما خلق إبليس إلا للدعوة ضد الحق وأهله ، وأن تعلم أيضا أن كل من كان على هذه المبادىء الخاطئة لاسند له ينتهى به إلا لهذا اللعين . ولا اقتفاء لهم إلا لآثار هؤلاء الضالين .

وسترى فى بياننا أن المبدأ واحد ، والعقيدة واحدة . فهم من حزب الشيطان .

إذ لا يخفى عليك أن الله تعالى جعل هذا الوجود فى كل شىء على زوجين ، حتى العقائد والدعوة إليها ، وسمى الحق حقا . والضلال ضلالا . ولا ثالث لهما . قال تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) وكذا الجماعة من كل على زوجين : حزب الله تعالى ، وحزب الشيطان .

ثم بعد ذلك نذكر لك : فساد تلك الضلالة التى يعتقدونها عقلا ونقلا . ثم نبين فيها صحة عقيدة أهل الحق عقلا ونقلا بإجماع الصحابة

والتابعين والأئمة المجتهدين ومن تبعهم بإحسان إلى وقتنا هذا . بل إن شاء الله تعالى يكون إلى يوم الدين .

وأيضا ليعلم القارىء الكريم ، أنه ليس الغرض من هذه الردود جماعة مخصوصة ، بل هى ردود على جميع الضالين من الآدميين فى جميع الفرق المارقة . الضالة عن الجادة والحق الصريح كلها ، لأنهم فى الحقيقة على مبدأ واحد وعقيدة واحدة ، وهو مبدأ إبليس اللعين . وإن اختلفت مشاربهم فى الضلالات ، إذكلها على منشأ واحد ى عدم الإهتداء إلى الحق الصريح الواضح الذى بيّنه الله تعالى لعباده .

وليعلم أيضا أن كل من ضل فى معرفة الله تعالى فقد ضل فى معرفة كل شىء ، حتى المجوس واليهود والنصارى ، ومن على تلك المبادىء الخاطئة من الفرق التى تفرقت فى الإيمان والإسلام بمخالفتهم لجميع الأنبياء والمرسلين . لأن الحق واحد لا يتعدد . وكذا الضلال . على ماسنوضحه لك إن شاء الله تعالى .

وإنى أعنى بردّى هذا كل داع مخالف لإجماع المسلمين مما هو شائع بيننا الآن لأنى أرى الآن من ينسب نفسه للعلم والعلماء من المسلمين يدعون بدعوتهم الخاطئة ، وضلالاتهم الجامحة ، ويعتمدون على كتبهم فى المراجع كلها التى يتقوّلونها . إما بالنقل بالحرف الواحد عنهم ، وينسبه الشخص منهم إلى نفسه ، ويوهم به أنه عالم . وظنا منه أن القارىء لا يعرف أنه ناقل عن الضال الذى قبله . واما بتغيير الألفاظ فى عباراته ، والمعنى متحد فى الضلالة المخزية لإجماع المسلمين .

ولست أدرى ، كيف يترك هذا المقلد الأعمى أقوال الأئمة الذين رأوا الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، الداخلين تحت حديث : « خير القرون قرنى » الحديث . ويقلد هذا المتأخر الذى اتخذ سبيل الغى من

جميع كتب مختلف طبقات المتأخرين ، وهو لم يجيء إلا بعد سبعمائة سنة . وقد انعقد الإجماع فيما دوّن عنهم ، وساد الأمر بين عقلاء الأمة على ذلك ، حتى ظهر هذا الجامع للفساد ويريد هو إتباع سبيله .

وياليته كان قد جاءهم بجديد ، بل لم يجيء إلا بكل مخالف معروف لأفاضل الأمة قبله وبعده .

وياليت الدعاء لتلك المبادىء الخاطئة الضالين ينقلون المضللين إلى جديد ، بل ينكرون على ما ثبت وصح عن خيار الأمة وهم الأئمة ، وقد انعقد الإجماع على صحة جميع ما دون عنهم ، رضى الله تعالى عنهم ، فأنت ترى الواحد من هؤلاء المخالفين فى بادىء أمره ينسب نفسه لمذهب سيدى أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه ، وبعد أن يشرب من مشارب سابقيه . يطعن عليه ، وعلى اخوانه الأئمة الكرام رضى الله تعالى عنهم ، ويكره إلى الناس اتباعهم ، والإقتداء بهم ، وإذا سألت أحدهم بقولك له : ما مذهبك ، يقول : محمدى !! كما ستعرفه إن شاء الله تعالى .

من هم الخوارج والذين هم على شاكلتهم الذين وردت فيهم الآيات والأحاديث أما الخوارج : فإنهم يعرفون بمن كانوا قد خرجوا على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين : وإطلاق لفظ الخوارج على من بعدهم لأنهم على شاكلتهم بل ويمتون إليهم بصريح السنة الناطقة بأن من يكون مع الدجال من ضيئضيئهم أى من سلالتهم .

فعلى هذا يكون كل من خرج على ما أجمع عليه المسلمون الآن فهو خارجى بالنسبة لهذا الإجماع كما خرجت أصولهم على إجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ومن هنا كان اخباره ﷺ عنهم بأسرار الوحى ومن معجزاته الشريفة بالأحاديث الآتية بأنهم يكونون كذلك لخروجهم على الإجماع : إذ ما أجمع خيار علماء الأمة الإسلامية على حكم من أحكام الدين إلا وله أصل فى كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين وإن لم يكن معمولا به فى زمنه ﷺ : لأن الكمال فى الدين فى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) لا يعد كاملا تاما إلا إذا كان مشتملا على الجزئيات التى أخبر الله تعالى عنها بأنها ستحدث ومتى كان الأخبار منه جل وعلا فهى واقعة لا محالة . وخاصة : إذا كان من أسند الله تعالى إلى حضرته التبيين والبيان حدث عنه : فيكون بالنسبة لحضرته ﷺ من سنة الأقوال : فهى داخله فى بيان الأحكام الدينية والمسائل الشرعية والسنن الكونية .

وعلى هذا يكون من يعارض هذا البيان المجمع عليه خارجا عن إجماع خيرة المسلمين : فاطلاق اسم الخوارج عليهم باعتبار هذا الأصل .

وإليك ما ورد فيهم بعد الآيات التى قدمنا كما هو فى صريح السنة :

جاء فى صحيح الترمذى عن أبى غالب قال رأى أبو أمامة رؤوسا منصوبة على باب دمشق فقال أبو أمامة كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء — خير قتلى من قتلوه — ثم قرأ — (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) إلى آخر الآية : قلت لأبى أمامة أنت سمعته من رسول الله ﷺ قال : لو لم أسمعه من رسول الله ﷺ مرة أو مرتين أو ثلاثا حتى عد سبعا ما حدثتكموه — قال هذا حديث حسن — وفى صحيح البخارى . عن سالم بن سعد قال قال رسول الله ﷺ : إنى فرطكم على الحوض من مر على شرب — ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردنَّ على أقوام أعرفهم وهم يعرفونى ثم يحال بينى وبينهم قال أبو حازم فسمعنى النعمان بن أبى عياش فقال هكذا سمعت من

سهل بن سعد فقلت نعم فقال أشهد على أبى سعيد الخدرى لسمعته وهو يزيد فيها فأقول انهم منى فيقال انك لاتدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا سحقا لمن غير بعدى . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة — فمن بدل أو غير أو ابتدع فى دين الله مالا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين منه المسودى الوجوه وأشدهم طردا وابعادا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها والروافض على تباين ضلالها فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون وكذلك كل من سلك سبيلهم وقد روى فى مسند الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال أخوف ما أخاف على أمتى رجل متأول القرآن يضعه فى غير موضعه — وفى صحيح البخارى يخرج ناس من قبل المشرق يقرؤون القرآن لايجاوز تراقيهم . وفى رواية حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه سيماهم التحليق .

وعند مسلم من رواية عبد الله بن أبى رافع عن على رضى الله تعالى عنه يقولون الحق بألسنتهم لايجاوز هذا منهم وأشار إلى حلقه — وفى صحيح البخارى ومسلم والترمذى قوله ﷺ : اللهم بارك لنا فى شامنا اللهم بارك لنا فى يمننا .

قال نجدى وفى نجدنا يا رسول الله فكرر الأولى .

وقال فى الثالثة هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرنا الشيطان كلما قطع قرن ظهر قرن إلى أن يظهر المسيخ الدجال — وورد لما قتل على ابن أبى طالب كرم الله وجهه الخوارج قال رجل : الحمد لله الذى أبادهم وأرحنا منهم . فقال على رضى الله عنه : كلا والذى نفسى بيده إن منهم لمن هو فى أصلاب الرجال لم تحمله النساء وليكونن آخرهم مع المسيخ الدجال — وقد

أنزل الله تعالى فى بنى تميم — (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) — ونزل فيهم أيضا — (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) .
ثم . اعلم أن الخوارج صنف من المبتدعة يتعدد خروجهم كما صرحت به الأحاديث ومنها ما قدمناه وأول ما حدث مذهبهم فى زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم فقاتلهم الإمام على فقتلهم بالنهروان وكانوا أكثر من عشرة آلاف فلم يقتل ممن معه إلا دون العشرة ولم ينج منهم إلا دون العشرة فانهزم إثنان منهم إلى عمان وإثنان إلى كرامان وإثنان إلى سجستان وإثنان إلى الجزيرة وواحد إلى تل مورون باليمن . وظهرت بدع الخوارج فى هذه المواضع منهم وبقيت إلى الآن لكونهم قد انضم إليهم من مال إلى رأيهم وسبق لك أن آخرهم يكون مع المسيخ الدجال . وكانوا يوم النهروان أهل صلاة وصيام وفيهم قال النبى ﷺ كما فى الموطأ والصحيحين وغيرها — تحقرون صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم وصوم أحدكم فى جنب صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم وهم المارقة أى لمروقهم من الدين كما صرحت به الأحاديث قال المسيخ داود فى كتابه صلح الإخوان . إن أول من أظهر كفر أهل السنة والجماعة وتشريكهم هم الخوارج والرافضة والمعتزلة — والخوارج هم كما فى رواية البخارى ومسلم وغيرهما من سائر كتب الحديث — أناس عمدوا إلى آيات نزلت فى الكفار فحملوها على المؤمنين . قال البخارى فى صحيحه باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم وقول الله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) — وكان ابن عمر يراهم شرار الخلق وقال انهم عمدوا إلى آيات نزلت فى الكفار فحملوها على المؤمنين — وقال ابن عباس فى قوله تعالى (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا

سبيلهم) — وفى الآية الأخرى (فاخوانكم فى الدين) — قال جرمت هذه الآية دماء أهل القبلة وإنما نزلت فى أهل الكتاب والمشركين فجهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلال فعليكم بالعلم بما أنزل الله به القرآن — انتهى .

وذكر السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير القرآن بالمأثور قال أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال المتشابهات آيات فى القرآن يتشابهن على الناس إذا قرءوهن ومن أجل ذلك يضل من ضل فكل فرقة يقرءون آيات القرآن ويزعمون أنها لهم ومما تتبعه الحرورية من المتشابه قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ثم يقرؤون معها (والذين كفروا بربهم يعدلون) فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا قد كفر وعدل بربه ومن عدل بربه فقد أشرك بربه فهذه الأمة مشركة .

والحرورية الذين ذكرهم سعيد بن جبير هم الخوارج فتبين لك أن علامة الخوارج تنزيلهم آيات القرآن النازلة فى الكفار على المؤمنين من أهل القبلة ولذا لاترى أحدا من أهل السنة يتفوه بذلك ولا يكفر أحدا ومنشأ هذه البدعة من سوء الظن واتباع العقل وأول من أظهر هذه أصل الخوارج التميمى الذى أساء الظن بالنبى ﷺ وحكم عقله الناقص لما رآه يعطى بعض الناس كثيرا لحكمة تألفهم على الإسلام . ولضعف إيمانهم . وحرمان كثير من المؤمنين لاكتفائهم بالله ورسوله كما ورد فى صحيح البخارى ومسلم ومسند الإمام أحمد وغيرها اهـ ..

وقد أجمع الأئمة على أنهم إن خرجوا عن قبضتنا أو تضررنا بهم بأن أظهروا بدعتهم أو دعوا إليها تعرضنا لهم . ولو بالقتل أو الحرق كما فعل

سيدنا على رضى الله تعالى عنه وأجاز بعض علماء الحديث قتلهم مطلقا عملا بقوله ﷺ كما مر إذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم الجزاء لمن قتلهم عند الله يوم القيامة ومذهب طائفة من المحدثين أن الخوارج كفار على ظواهر الحديث وهو الذى ينصره عندنا الرأى السديد والعقل الرشيد المتأمل فى عقائدهم الفاسدة المصادمة لأصول الإسلام الثابتة بالأدلة اليقينية التى يقررها العقل والنقل المنزهان عن الشبه وأدران المكابرة وخاصة فى خوارج عصرنا . المقلدة . لهم . البلهاء . الذين لايعرفون شيئا من أصول الدين وضرورياته الأولية فضلا عن التأويل ومزالقه الصعبة ومما ورد فى أوصافهم أيضا من الأحاديث ما أخرجه أصحاب السنن والمسانيد أنه ﷺ قال : يخرج فى آخر الزمان أقوام حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم تحقرون صلاتكم فى صلاتهم وصيامكم فى صيامهم وأعمالكم فى أعمالهم يقرأون القرآن يحسبونه لهم وهو عليهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شىء يحسنون القول ويسيئون الفعل هم شر الخلق والخليقة لايزالون يخرجون حتى يكون آخرهم مع المسيخ الدجال .

وفى ابن ماجه بإسناد صحيح عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ينشأ نشأ يقرأون القرآن لايجاوز تراقيهم كلما خرج قرن قطع قرن ـ قال ابن عمر ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول كلما خرج قرن قطع أكثر من عشرين مرة حتى يخرج فى معراضهم الدجال ـ والمعراض بالكسر مصدر عارضه إذا قابله وجازاه ـ والمراد المقابلة فى الزمان فهو كقوله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه النسائى فى سننه وغيره حتى يكون آخره مع

المسيخ الدجال — وفى آكام المرجان فى أحكام الجان الباب الثالث عشر بعد المائة قال روى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : إلا أن الفتنة هنا يشير إلى المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان — وفى رواية قال وهو مستقبل المشرق ها إن الفتنة هاهنا ثلاثا وذكر نحوه — وفى أخرى أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان وزاد البخارى فى رواية أن النبى ﷺ قال : —

اللهم بارك لنا فى شامنا . اللهم بارك لنا فى يمننا قالوا يا رسول الله وفى نجدنا فأظنه قال فى الثالثة هناك الزلازل والفتن ومنها يطلع قرن الشيطان . ومنها ما رواه ابن عدى فى الكامل عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال (أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم باللسان) اهـ .

لعله قد بان لك واتضح من الأحاديث الصحيحة المتقدمة التى هى بيان لآى القرآن الحكيم المتقدمة بتوضيح أوصاف من هم كذلك من أهل الفتن والأهواء والزيغ وأنهم لايزالون كذلك إلى أن تقوم الساعة فهو من أعلام نبوته ﷺ . وقد كشف للأمة حالهم وبين لها مآلهم فيكون من باب التحذير من حضرته ﷺ للأمة الناجيه ورأفته بها وحرصه عليها كما قال ﷺ فى الحديث المشهور المروى عند أصحاب السنن والمسانيد — إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقع عليها فأنا آخذ بحجزكم عن النار — وكما وصفه الله تعالى بما هو عليه من الرأفة والرحمة والحرص فى قوله جل ذكره — (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

وناهيك بما خصه الله تعالى به ﷺ دون غيره من جميع الأنبياء والمرسلين وهو قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) .

ولما أنهينا الكلام على بعض ما ورد فيمن هم على قدم الشيطان من الكافرين والمشركين والمنافقين والملحدين والمارقين الذين شملتهم فرق الزيغ والضلال .

أعقبناه لك ببيان الأمة الناجية عند الله تعالى وهى المرادة فى قوله تعالى (كنتم خير أمة) (وممن خلقنا أمة) (وكذلك جعلناكم أمة) .

الفصل الرابع

فى الأمة الناجية عند الله تعالى

وبيانها صريح كلام رب العالمين وبيان سنة سيد المرسلين ﷺ — لأنها هى التى تعمل بمقتضى بيان الحق عز وجل بمطابقة الآيات القرآنية للآيات الكونية فهى تنظر إلى أسرار الله تعالى التى أودعها فى مخلوقاته وتأتى كل شىء من بابه وتلتمس تلك الأسرار من مصادرها مع الاعتقاد الجازم بأنه لافعل لمخلوق . وإنما الفعل لله وحده وبذلك ينطبق عليها (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وفى الحديث (لاتجتمع أمتى على الضلالة) وفى الحديث (والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى) — فإن لم تكن هذه هى الأمة الناجية فمن غيرها ؟

اعلم أيها القارىء الكريم أن وجود العالم على حالة واحدة من العبث المحض إذ لا يعقل الخير من الشر ولا يتصور النفع من الضر إلا بوجود الشىء ومقابله . وقد قال العقلاء بضدها تميزت الأشياء وأيضا .

فإن ذات الحق عز وجل تامة من جميع الوجوه ووجب فى مقتضى

الحكمة اعطاء كل ذى حق حقه وكل من الضدين يطلب كماله فى الظهور فى الخارج ولولا ذلك كنا لا نتعقل كمل ذاته سبحانه وتعالى ولاحكم لها عاقل بالكمال إلا إذا كانت كذلك يعنى كونها مغايرة للحوادث وجامعة للضدين بمعنى أن عندها ما تفيض به على غيرها إذ لوكانت على الخير الصرف لنقصت الشق الآخر وهو ضده والذى دلنا على ذلك وجود الموجودات حسا ومعنى على تلك الحالات وهى آثار الصفات التى هى متعلقات الذات — هذا وقد رأينا فى جميع أنواع الموجودات بل فى جميع أعيانها بل فى كل فرد من أفرادها المتضادات — قال تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وليس الزوجان فى المتقابلات فقط بمعنى فى الدنيا والآخرة.

وفى الدنيا الخير والشر — وفى الآخرة الجنة والنار فحسب بل فى جميع أفراد الموجودات لاشتمال كل من ذلك على الحالتين الروحانية والجسمانية وأيضا فى كل جزئية من جزئياتهما. كما لا يخفى وفى ذلك كبير الحكم وعظيم القدرة مع إتقان الصنع وجودة التركيب بمراعاة المناسبات والنسب. وبهذا جاء التنزيل (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فتور) .

ومتى كان المصدر واحداً كانت نسبة الأشياء الصادرة عنه متساوية فى الكمال فكان من تمام نظام التكوين أن يكون ما فى الوجود على هذا الحال كما ترى. وقد سئل بعض العارفين: ما مراد الحق من هذا الخلق؟ فقال: ما هم عليه.

ولا يخفى عليك أن مآل الجميع لا يخرج أيضا عن حالتين كما قال تعالى (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) دار لرحمته وانعامه — ودار لسخطه وانتقامه . وفى حديث الصحيحين عن عبد الله بن مسعود عن

النبى ﷺ قال (احتجت النار والجنة قالت هذه يدخلنى المتكبرون والجبارون وقالت الجنة يدخلنى الضعفاء والمساكين قال الله أنت دار رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى . وأنت دار عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى . ولكل منكما ماؤها) .

ولما كانت الدنيا هى المقابلة للآخره كانت عكسها على خط مستقيم لأن هذه دار الأعمال بالأسباب المشروعة المعلومة من تكوين الحق عز وجل للموجودات وبه جاء البيان على ألسنة رسل رب العالمين فلا يتأتى فيها حصول شىء إلا بالأخذ فى الأسباب .

إذا عرفت هذا فاعلم أن الأمة الناجية هى التى عرفت الحق عز وجل بالأدلة العقلية المطابقة للأدلة النقلية وتجزم بأنه سبحانه وتعالى مخالف للحوادث وأنه ليس كمثله شىء فى ذاته وصفاته وأعماله وإذا ورد ما يوهم التشبيه فإنما يضاف إليه ما يقتضيه كماله من التنزيه المطلق فليس له جارحة ولا مكان ولا يشتمل عليه الزمان وهو الخالق للأمكنة والأزمنة وكل شىء أثر صفاته وهو المحيط بما كان وما يكون لا إله غيره . وهو العزيز الحكيم .

ولقد أجمع عقلاء الأمة الإسلامية على أن كل لفظ يحتمل معنين وكان أحدهما يوجب محذورا يجب العدول عنه إلى مالا محذور فيه .

وأنت تعرف أن وجود شىء لا من شىء محال عقلا فلابد لهذه الموجودات من أصل وهو حقائقها الثابته فى العلم الإلهى والمترتب عليها وجودها فى الخارج وهى المخاطبة بقول كن إذ الخطاب نسبة بين مخاطب ومخاطب سميع مطيع ولابد للنسبة من طرفين إذ لو سقط أحدهما لسقطت النسبة .

ولتصف الحقائق العلمية بالثابتة كما تتصف الأمـــور الخارجية

بالموجودة — وتعرف أن هذا الأصل لجميع الحقائق الكلية والجزئية هي حقيقته ﷺ كما سنأتي لك الأدلة على ذلك ، ولذا تحبه ﷺ حبا كما أمر الله تعالى أن يحب . قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) والمتابعة لا تكون ثابتة إلا إذا كانت على أكمل الوجوه من العمل وحسن العقيدة بالكليات والجزئيات التي جاء بها القرآن المجيد — وتعرف أن القرآن جامع لكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينه ودنياه وآخرته ماديا وروحانيا وأنه خير كفيل لسعادة الدارين لمن تمسك به ، وعمل بما فيه ، مع بيانه الشريف له ﷺ ، وأنه ليس بقانون فقط ، بل هو شفاء للأحياء من جميع ما يؤلمهم ، من كل النواحي المادية والروحانية — ورحمة للأموات ، به يرحم الله تعالى من يشاء من عباده . قال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) وسيأتي بيان ذلك — وتعرف أنه كفيل بالرجوع إليه في القضايا الحاصلة في الكون والتي ستحصل على مختلف الآباء وحوادث الأكوان ، صالح لكل زمان — وتعرف أن من الأحكام الشرعية ما هو كلي تندرج تحته جزئيات هي كمالات في ذات الحكم وليست خارجة عنه ، بل هي من أصل التشريع ولا يقال إنها بدعة ليست منه — وأن كل ما هو كمال في ذاته فهو شرع داخل تحت كل كلية من كلياته — وتعرف أن القرآن جاء بوجوب العمل بأحكام الإجماع والقياس والاستنباط ، وأنه يجب العمل بها ، وأنها من بيانه ﷺ ، وأن الله تعالى أوجب على الأمة الأخذ بها ، وأمر به ﷺ — وتعرف أن المراد بالأمة المذكورة في القرآن والسنة . هي المعصومة من الضلالة — والتي قال الصادق المصدوق

ﷺ إنها لا تشرك بعده أبدا — هى الأمة التى تعمل بالكتاب والسنة والإجماع والإستنباط ، وهى السواد الأعظم من المسلمين ، لا الفرق الضالة الشراذم القليلة ، التى تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعضه ، وهى التى لا تنسب للقرآن عجزا فى اعاطته ، ولا لبيانه ﷺ تقصيرا وسأوضح ذلك فى الأدلة قريبا إن شاء الله تعالى .

وتعرف أن كل فرد من أفراد الموجودات فيه مزية تغاير مزية الفرد الآخر ، وأن هذا الفرد مهما رقى فى ذاته فلا يدرك ما عليه تكوين الآخر ولا يغنى بمزيته عن مزية الآخر ، ولا ينتفع به ما ينتفع بالآخر — وتعرف أن جميع الموجودات بماديانها لاتخلو من الأسرار الإلهية ، وأن كل موجود له مرتبة خاصة من مراتب الإمكان ، لا تخرج عن دائرتها ، والسير فى طريقها ، وهى صراطه المستقيم ، والمرتبة الكلية هى مرتبة حقيقته ﷺ ، وهى مرجع كل مراتب الموجودات على الترتيب الذى يقتضيه كل النظام الحكيم ، ولذا تراها تنتج المنافع الدنيوية والدينية والأخروية ، ولا تتخلف عن القيام بما خلقت به ، ولأجله ، وبما انطبع فى تكوينها من افاضة الخير ، أو الشر لطالبيه (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وإلا لوكان ذلك الشيء الموجود من جاد ونبات وحيوان مجردا عن الفائدة والمنافع والمضار الدينية والدنيوية والأخروية ، لكان وجوده عبثا لخلوه عن الفائدة ، وهذا باطل بالبديهة — ولقوله تعالى (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) .

فالأمة الناجية تسير فى طريقها الذى رسمه الله تعالى لها فى نظام تكوينها «كل ميسر لما خلق له» ، وهذه هى عقيدة الفرقة الناجية التى عرفت الأسباب

المشروعة فتأتى لحاجياتها من هذه الناحية ، وهى بابها الذى خلقت له ، ولا يتخلف فيها المطلوب عن طالبه سواء كان من أمر الدين أو الدنيا أو الآخرة مادية كانت أو روحية ، لاشتمالها على كل المطلوب — قال تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها) وباب الخلق خالق (والله خلقكم وما تعملون).

فتبين لك أن الطالب لها ليس طالبا غير الله لأنه سبحانه وتعالى جعلها مشتملة على ذلك ، والذى جعلها على ذلك جعل حاجتك إليها (فأينما تولوا فثم وجه الله) فنى الحقيقة أنت تطلب من الله قضاء حاجتك بلسان الحال — مثلا أنت تطلب النار من الأسباب المودعة فيها كعود الكبريت أو الولاعة أو الزناد أو مشاكل ذلك ، فلسان حالك يطلب من الله أن لا يتخلف ولسان حالك يرجوه القيام بطلبك وإن كان قد يتخلف عن طلبك . والسكين كذلك وهكذا فى جميع الجماد والنبات أيضا منه كالدواء وجميع المأكولات والمشروبات وفى الحيوان أيضا مثل ذلك ، كأن لسان حالك يقول اللهم ذلله اللهم أعنه على قضاء حاجتى ، وفى بنى آدم كذلك ، كأن لسان حالك يقول اللهم وفقه لقضاء حاجتى سواء كانت دينية أو دنيوية أو أخروية ، بحسب ما اشتمل عليه تكوين ذلك المطلوب والطالب أيضا — إذن — فالطالب بالأسباب المشروعة طالب لله ومن الله وإلى الله ، إذ المخلوق من جماد ونبات وحيوان — ومن الحيوان الإنسان — ليس فى مقدور كل نفاذ أى شىء — وما قصدناه فى حاجتنا إلا بعد أن عرفنا تميزاته عمن سواه ، وتحققنا بأنه اشتمل بمقتضى تكوينه ، على ما يفيض به على غيره إذا شاء من بيده ملكوت كل شىء ، وكان قد سبق فى علمه تعالى بأن هذا يقضى لهذا ، وهذا ينفع هذا ، وهذا يضر هذا ، وهذا يدفع ضر هذا ، وهكذا ، فمن لاحظ صنع الله تعالى فيه ، وأن له طريقا

لا يشاركه فيها غيره ، وهو فى الواقع صراطه المستقيم ، فى حياته الدنيوية كانت حركاته وسكناته لله بالله ، وإن تشــأ فقل : خلق الله الأشياء كلها للإنسان ، فكل شىء فى الوجود يعتبر قوة مسخرة لبنى آدم ، فيدك قوة تناولك الغذاء مثلا — والجمل قوة يحمل إليك المتاع ، وهكذا فإذن القوة الإنسانية ، تنقسم إلى قسمين : قوة متصلة كيدك ورجلك ، وقوة منفصلة فى ظاهر الأمر كقوة السكين والنار ، وهكذا ، فالتى تراها بعيدة هى فى الواقع لها بك أتم إتصال (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) فنسبة الفعل إلى السبب المباشر حقيقة ، ونسبتها إلى السبب البعيد ضرب من المجاز ، فإذن : نسبة الفعل إلى العبد نسبه حقيقية وعليها تثبت التكاليف ، ولا ينافى ذلك إن الله تعالى خالق لعبده وما عمل — ولا يخفى عليك أن الطالب نسبة بين الطالب والمطلوب ، فمتى توفرت الشرائط والأسباب ، طلبتك الحاجة كما تطلبها هذا ، وقد تتخلف تلك الاسباب عند عدم إرادة الله تعالى بالنفاذ كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم — وعدم قطع السكين فى الذبيح ، وغير ذلك كثير — قال تعالى (وما كان لرســـول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) (وكل شىء عنده بمقدار) وعلى هذا فالطلب سواء كان بلسان الحال أو المقال أو الفعل مشروع ، ولا ضرر ولا إشراك فى نسبة الأفعال إلى الموجودات على ما بينا لك ذلك . وتأثيرها إنما هو باعتبار مباشرة الأداة لظهور الأفعال ونسبة الأفعال إليها به جاء التشريع ، وعليه أساس نظام التكوين ، والقرآن العزيز مملوء من هذا — وسنبين ما يتيسر لنا من ذلك فى محله إن شاء الله تعالى .

وقد قلنا فيما تقدم أن أساس التكوين مبنى على المقابلة والمماثلة وبالمقابلة يحصل التضاد والعناد . وبالمماثلة يحصل الائتلاف والإرتباط ، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سعيا ، وكان مثله كمثل من هو في حاجة إلى الطبيب فيذهب إلى النجار أو الحداد ـ أو من هو فى حاجة إلى المال فيذهب إلى من يدعو ربه بالغداة والعشى يريد وجهه ـ وهكذا ـ وتعرف أيضا هذه الأمة الناجية التى أنار الله تعالى بصائرها بنور الحق ، أن طلاب الحاجات قد جعلهم الله تعالى على قسمين ، كما جعل حاجاتهم أيضا فى قسمين: الأول منهم يطلب حاجته بالأسباب الظاهرة المشروعة ، ولا يعول إلا عليها ، ولا يحيد عنها ، فإذا ما بدت له المصلحة ، لا يتطلبها إلا بظواهر الأسباب ، وهو محق ، وبه جاء التشريع وقد أتى البيوت من أبوابها ـ ولقوله ﷺ « فر من المجذوم فرارك من الأسد » وبهذا يحصل النظام الكونى وهو نفسه خلق لهذا ولا يعمل إلا بهذا ، وهناك يجد حاجته وطلبه ـ والثانى لا يعول إلا على بطون الظواهر وهى ما لولاه ما وجدت الظواهر وهى الروحانيات نسبة إلى الروح إذ لا موجود إلا ما هو حى ولا حياة إلا بالروح ، فتجده لا يتطلب حاجته إلا فيمن غلبت عليهم الأرواح ، وكانت هذه الحالة أقوى ما عليه تكوينه فتكون صلته بربه سبحانه وتعالى ، أقوى وأقرب ، ويكون ذلك الطالب أيضا فيه هذا الإستعداد ، وتكوينه اقتضى ذلك ، فلا يعول إلا على هذا ، وهو محق وبه جاء التشريع وقد أتى البيوت من أبوابها ولقوله ﷺ « لا عدوى ولا طيرة » وبهذا يحصل النظام الكونى وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى مبينا بأوضح بيان .

هذه هى الأمة التى تعرف ربها عز وجل وتعرف أسرار موجوداته

وتقيم على ذلك الحجة الدامغة والبراهين القاطعة العقلية والنقلية من الكتاب والسنة والإجماع والقياس هذا ولما كانت الدنيا مزرعة الآخرة فقد عرفت النتيجة بعد الحصاد كما ترى فريقا للنكال والوبال وفريقا للحفظ والكمال . وهو الذى أصبح معلوما عند جميع العقلاء فالناس كافة يطلبون الكمال ولكن لا يعرفون ما هو ولا كيف هو ولا أين هو فحاروا فى ذلك وخرجوا يتلمسون طريقه فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة — فكل من أضله الشيطان وأراه مفازة وزين له سوء عمله فرآه — كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فظن أن هذا هو الحق . ولسبق شقوته لم يوفق لما عليه جماعة المسلمين واستمر فى طغيانه ومخالفته وحسن له إبليسه أنه على الحق المبين وإن كل الناس فى ضلال مبين ويجمع حوله من العوام من حسنت نواياهم من ضعفاء الإيمان وقد زين له الشيطان أنه صالح للإقتداء به فيقود شراذم قليلة من المضللين يعتقدون أنه إمام الهدى ولكنه :

إمام فى الفساد له رجال يعينون الإمام على الفساد

وهكذا فى كل العصور على مر الليالى والدهور وإن كان لم يفطن إلى أن الله تعالى جعل لكل نمرود إبراهيم . ولكل فرعون موسى . ولكل ضال محمدى .

وهكذا سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا — والكل يتنازعون الحق ويتخاصمون فيه ويجزم كل واحد منهم أنه على الحق ومن عداه على الباطل ويأتى بالآيات والأحاديث العامة المعانى ويتأولها لهواه وكأنها المبادئه الفاسدة وأباطيله الكاسدة نازلة (كل حزب بما لديهم فرحون) وينطبق عليهم قوله :

وكل يدعى وصلا لليلى وليلى لا تقر لهم بذاك

اعلم أن الحق واضح جلي كالشمس فى رابعة النهار وليس دونها سحاب ولا يدرك هذا إلا من شاء الله تعالى هدايته وكان بصيرا ناشئا على حب ما أمر الله تعالى به بفطرته قال تعالى (الله يجتبى إليه من يشاء) من الأنبياء والمرسلين — (ويهدى إليه من ينيب) — أى إلى المجتبى بدليل عود الضمير إلى أقرب مذكور — قال العلامة البيضاوى — الله يجتبى إليه من يشاء — يجتلب إليه والضمير لما تدعوهم أو للدين ، ويهدى إليه ، بالإرشاد والتوفيق ، من ينيب ، يقبل إليه قال العلامة الشهاب على البيضاوى : فأهل الإجتباء غير أهل الإهتداء وكلتا الطائفتين هم أهل الدين والتوحيد الذين لم يتفرقوا فيه اهـ فهم الذين خلقوا مستعدين لقبول الخير — (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب):

فقد عرفت أن هذا لم ينطبق على جميع الناس بل هم قوم مخصوصون أهلهم الله تعالى للانابة ولهذا نقول إن العقول مضطربة والوصول إلى الحق صعب والأفكار مختلطة ولم يسلم من الغلط إلا من عصمه الله تعالى وهم قليلون فالهداية وإدراك الحق لا يكون إلا باعانة من الله سبحانه وتعالى وهدايته وارشاده وكل الخلق يطلبون الهداية ويحترزون عن الضلالة مع أن الأكثرين وقعوا فى الضلالة مصداق قوله ﷺ (كلهم هلكى إلا ما أنا عليه وأصحابى) وقد بينت لك الأمة التى هى على الحق وأنها هى التى على ما عليه ﷺ وأصحابه — وانى أبين لك معنى أحقيتها دون الفرق الأخرى وأنها هى التى جاء القرآن ببيانها وأنها هى الأمة الحقة وما عداها هلكى لعملها وإيمانها بجميع كليات وجزئيات القرآن والسنة والإجماع والقياس والاستنباط بالدليل العقلى والنقلى وهى المعنية بقوله تعالى (كنتم خير أمة

أخرجت للناس) (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق) .

الآيات التي لانجاة إلا بالعمل بها

إن الأمة الناجية عند الله تعالى بنص كتابه العزيز وبيان سنة رسوله الكريم ﷺ هي التي تؤمن وتعمل بجميع آياته القرآنية والكونية التي بينها جل شأنه في كتابه المبين .

والآيات جمع آية وهي تشمل آي الذكر الحكيم من فواصل آي السور من الكتاب الحكيم كما في قوله تعالى : (آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه . هدى للمتقين) . (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) . (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) . (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) . وغير ذلك كثير من الآيات التي يعني بها تلاوة الألفاظ المنزلة من عند الحق عز وجل مع تدبر معانيها .

ومن الآيات ما يراد به المعجزات الخاصة بالأنبياء والمرسلين وهي خرق العادات كما قال تعالى (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) وما هو من بابه عن كرامات الأولياء والصالحين .

ومن الآيات ما هو غير ذلك من كل أثر من آثار صفات الحق عز وجل التي أودعها في موجوداته من جماد ونبات وحيوان ومياه ورياح وسفن وغيرها مما هو من آثار صفات الحق عز وجل وليس في مقدور البشر الاتيان به ومما هو في مقدور البشر ولكن بتوفيق من بيده ملكوت كل شيء ومجرى الأسباب في كل شيء وخالق الأشياء لتأدية ما خلقت لأجله من كل شيء وفي كل شيء قال تعالى في آي النبات : (وهو الذي أنزل

من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . وغير ذلك كثير وقال تعالى في آيات الجماد والدواب والأنعام والناس (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها . ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) وغير ذلك كثير وقال تعالى في آي الإنسان (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . وقال تعالى في الآيات الكونية (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وغير ذلك كثير من الآيات التي نصبها الحق عز وجل دلائل على معرفته وعلى بديع صنعته وعلى وحدانيته وانفراده بالإبداع والإيجاد وأنه الفعال المختار في كل شيء تلكم الآيات التي من حاد عن معرفتها وضل عن النظر فيما جاءت لأجله وما خلقت له وأنها آثار صفات الحق عز وجل وأنها لم تكن في الوجود عبثا بل لحكم عالية قد يعجز البشر عن إدراك كنهها وفهم معانيها .

ومن يغفل عن النظر في هذه الآيات وما اشتملت عليه من الأسرار

الإلهية فإنه يدخل فى تعداد قوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) والمراد بالأعمى فى هذه الدنيا هو أعمى البصيرة لا أعمى البصر قال تعالى (فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وأما أعمى الاخرة فهو أعمى البصر فانه لايرى آيات ربه التى يقوم الناس عليها لرب العالمين وإنما يسمع بها من غيره قال تعالى (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه) فهذه آيات قد جعلها الله تعالى حجة قوية قاطعة لألسنة المكابرين المنكرين لها الجاحدين لآثارها .

وقد لفت الله تعالى نظر عباده إليها وحثهم على التدبر فيها والتمسك بها والتعويل عليها فقال عز من قائل (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء) فقد جعل جل شأنه التدبر فى تلك الآيات والنظر فى تحقق ما خلقت لأجله برهانا واضحا لمن تمسك به وأقام الحجة بها على خصمه ويكون موقنا بموجدها قال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) وقد امتدحها جل شأنه لما كانت حججا واضحة لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما حاج قومه فقال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) . فهذا هو البرهان العقلى والدليل القوى الواضح الصريح المستفاد من الدليل النقلى المؤيد من خالق الأرضين والسموات المنزل على قلب سيد الكائنات ﷺ .

ولايخفى على ذى لب أن هذه كلها مخلوقة لأكمل مخلوق خلقه الله عز وجل لينتفع بها فى جميع مستلزماته وهو الإنسان . قال تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم ما فى السموات

وما فى الأرض جميعا منه) ووجه الإنسان جل شأنه للنظر إليها بقوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) . فمن نظر فيها وتدبر معانيها وعلم بأسرارها سماه تعالى مؤمنا حقا . وهم مع ذلك من قال الله فيهم: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا) وقال تعالى فيهم (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) .

ومن لم يتدبر تلك الآيات الكونية والقرآنية وأسرارها ومعانيها فليس بمؤمن حقا قال تعالى (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

ومن هنا تعرف أن أول الدلائل وأوضح البراهين من تلك الآيات ما كان مرئيا بالنظر ملموسا باليد مقطوعا به عقلا ونقلا .

وتنقسم الموجودات إلى أجناس ثلاث أو مولدات ثلاث — وهى الجماد . والنبات . والحيوان . فالجنس الأول وهو الجماد من تأمل فيه بعين النظر وأنعم عين الفكر وجد أن تحته أنواعا وأن كل نوع تحته فصول وأن كل فصل تحته أفراد وكل فرد من أفراده جعل الله له مزية خاصة تغاير الآخر . فالحجر يغاير الطوب الذى هو عبارة عن المدر المنوه عنه فى الحديث (أو مدر) فالحجر أنواع كما وصفه الله تعالى بالأبيض . والأحمر . والأسود . وغيرها من باقى الألوان . ومنه الأحجار الكريمة السبع . ومنه الأملاح السبع . والكباريت السبع . والمعادن السبع وهكذا من جميع الأفراد . وقد أغنانا عن ذكر ذلك مفصلا أفاضل المتقدمين فقد أفردوا لها مؤلفات جميلة بتوفيق الله تعالى لهم فيها وذلك

بعد أن لفت الله نظر عباده العقلاء إلى التدبر فى معانيها وما خلقت لأجله.
والتدبر فى حكم موجدها وفى تركيبها وفى معرفتها بالله تعالى وتسبيحها
اياه تعالى وفى نموها وفى ما ينتفع به منها حية كانت أو ميتة وهل حياتها
تنعدم وتفنى أو هى بموتها تحيا حياة أحيا من الحياة الأولى وأن الله جل
شأنه يجعلها فى حياتها الآخرى أكثر منها نفعا لبنى الإنسان فى حياتها
الأولى وذلك مشاهد لا سبيل إلى انكاره كما سنعرفه من الأمثلة فليتدبر
العاقل وليعلم أن الجماد بموته يحيا حياة أوسع نفعا من حياته الأولى
وإذا كان هنا حال الجماد فكيف لاتكون جميع الأجناس كذلك . وبذلك
تظهر للإنسان آثار صفات الحق عز وجل لتقوى المعرفة به جل شأنه .

وإليك مثلا لتقيس عليه كل فرد من أفراد تلك الأجناس الثلاثة :
فانا إذا أخذنا حجرا مثلا من النوع الأبيض ونعرف أننا ننتفع به وهو حى
حياته المعروفة الان وهو مما قال الله تعالى فيه (وإن من شىء إلا يسبح
بحمده) والتسبيح لايصدر إلا من حى . وقال الصادق المصدوق ﷺ
(لايسمع مدى صوت المؤذن جن ولا انس ولا شجر ولاحجر ولا مدر
وإلا ويشهد له به يوم القيامة) رواه أصحاب الصحاح . ومن المعلوم أن
الشهادة لاتعقل إلا من حى فإذا أمتناه من تلك الحياة بمعنى أننا أحطناه
بالنار من كل النواحى فتذهب روحه البترولية فنحكم عليه بأنه قد مات
وتفرقت أجزاؤه فنجد أن الله تعالى قد أوجد فيه منافع جمة أكثر من
منافعه فى حياته الأولى لأنه فيها لايستعمل إلا فى البنيان فى البيوت
والقلاع والحصون والكبارى وغيرها من مستلزمات الإنسان وأما بعد
موته بالاحراق فيكون نفعه أكثر وهو أن يؤخذ منه ويعمل منه الصوديوم
وغيرها من نوعها والمراهم وتلطيف الحرارات الجلدية وصبغة الشعر

والجيرة ومن مائه (الكلسم) والصابون والمياه الحادة والمياه التي تذيب المعادن بإضافتها إلى شـــى من نوعه وتثبيت البنيان وتبييض الحيطان . فالفرق بين منافعه في حياته في غاية الوضوح فمنفعته في الأولى لا تذكر بجانب منافعه الجمة في الأخرى .

فإذا كان الجماد بهذه الحالة : أفلا يكون الإنسان الذي هو محل نظر الحق من هذا الخلق نفعه بعد موته أعم وأشمل وأن أثار صفات الحق عز وجل بالنسبة له أتم وأظهر في حياته الأخرى أفلا يعقل من يقول أن ابن آدم مات وانتهى ولا حساسية له ولا نفع ولا انتفاع به بعد موته .

وسيأتي لك ما هو أكثر بيانا في ذكر حياة وموت الإنسان ويكفينا في هذا المقام المثل المتقدم نقيس عليه جميع أنواع المعادن السالفة الذكر .

والجنس الثاني أو المولد الثاني وهو النبات تقول فيه من حيث التقسيم والتفضيل وموازنة مزايا أفراده بعضها ببعض كذلك وإليك مثلا منه وهو البر المعروف بالقمح فإنه ينتفع به في حياته المعروفة وهو حبوب وورق استعماله للأكل وهو حي معروفة وأما بعد اماتته بطحنه بحرارة الأحجار وتفرق أجزائه فإن نفعه بعد موته أكبر وأوسع في كافة أنواع استعمال المأكولات بإن بعضها أرفع من بعض وأدق وبأدنى نظر تجد أن نفعه بعد موته أعم وأشمل من نفعه وهو حي فإذا كان النبات كالجماد نفعه بعد موته أكثر من نفعه وهو حي أفلا يكون الإنسان الذي هو محل نظر الحق من هذا الخلق أحيا وأنفع سيتضح لك ذلك ؟

والجنس الثالث من هذه الأجناس أو المولدات . وهو الحيوان تقول فيه ما تقدم لك من الأنواع والفصول والأفراد وفي كل فرد من أفراده مزايا تغاير الاخر ونسوق لك مثلا أيضا : فإنا إذا أخذنا كبشا من الضأن

وأمتناه من حياته المعروفة وجدنا فيه بعد موته نفعا أعم وأشمل من حياته التى كان يجرى بها فى الدنيا فاما ننتفع بدمه الذى يسيل منه ومن صوفه وجلده وقرونه وأظلافه وشحمه ولحمه وعظامه التى فيها المنافع الجمة من فسفور ونوشادر ودهن وفحم يكرر به السكر وغير ذلك فإذا كان الحيوان الأعجم منافعه بعد موته أكثر وأكبر أفلا يكون الإنسان الذى هو محل نظر الحق من هذا الخلق أعم وأشمل .

أفلا ينظر الإنسان نظرة اعتبار بهذه الموجودات التى تعلقت بها أثار صفات الحق عز وجل وأنها مغمورة بالفضل والكرامة والجود والإحسان لحكم غالية تجلت فى أعيان الموجودات بما حارت فيه العقول عن إدراك كنهته من ربط المناسبات والنسب برقائق اقتضتها الحكمة وحسن الاختيار .

ولا يخفى عليك أن هذه الأجناس الثلاثة ينطوى كل جنس منها على أنواع وفصول وأفراد . وأن فى الأجناس جنسا واحدا هو أعلى الأجناس . وأن فى الأنواع نوعا واحدا هو أعلى الأنواع . وأن فى الفصول فصلا واحدا هو أعلى الفصول . وأن فى الأفراد فردا واحدا هو أعلى الأفراد . ولولا أن يطول بنا المقام لذكرناها جزئية جزئية وسيأتى إن شاء الله .

ولا شك أن أعلى الأجناس الثلاثة هو الحيوان . وأن أعلى أنواع الحيوان هو الإنسان . وأن أعلى أفراد الإنسان هم الأنبياء والمرسلون وأن أعلى الأنبياء والمرسلين هم أولو العزم من الرسل . وأن أعلى أولى العزم هو حضرة المصطفى ﷺ (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) .

وتفضيل بعض الرسل على بعض يرجع إلى مقدار ما آتاهم الله تعالى من علم ومعرفة به جل شأنه وهم بلا شك يتفاوتون فى ذلك بصريح قوله

ﷺ (ما أرسل الله رسولا إلا وأعطى من السعة العلمية بقدر البشر المرسل إليهم) رواه الإمام أحمد . ولا نزاع فى أن كل رسول أرسل إلى قومه خاصة فكان علمه بقدر البشر الذين أرسل إليهم فالذى هو أكثر قوما أوسع علما ومعرفة بالله تعالى وبهذا يعرف التفضيل والتفاوت فى مراتبهم العلمية . ولا ريب فى أن سيد المرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين . قد أرسله الله تعالى للخلق أجمعين قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وبهذا يكون ﷺ أوسع المرسلين علما ومعرفة بالله تعالى فيكون أفضلهم على الاطلاق . فليس فى الوجود أعلى منه ﷺ إلا خالق الوجود سبحانه وتعالى .

وكل ما فى الوجود . عبد ورب . قال تعالى (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا) وبما أنه هو أعلى المربوبين فيكون ﷺ هو العبد الأسمى الذى لا يطلق العبودية مجردة إلا عليه ﷺ قال تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده) وقال تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) وقال تعالى (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) فهو ﷺ الإنسان الكامل فى ذاته وصفاته ورسالته وعبوديته .

ولما كان ﷺ أفضل خلق الله كان أول خلق الله ويشير إلى ذلك قوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) وقد بسطنا الكلام على هذا فى الكلام على أول حقيقة خلقها الله تعالى وسيأتى بعد باب معرفة الله عز وجل فيما يأتى من الأجزاء إن شاء الله تعالى .

الفصل الخامس

نذكر فيه أدلة الأمة الناجية عند الله تعالى بصريح كلامه العزيز . وبيان سنة نبيه الكريم ﷺ . من أنها لا تعمل عملا . وخاصة فى المعتقدات إلا ولها تمام الاستدلال على ذلك من الكتاب . والسنة . والإجماع . والاستنباط . والقياس .

اعلم أن الأمور التى هى محل تنازع العالم — ثلاثة : وهى الالهيات ، والنبوات ، والمعاد ، وهو أصل الإيمان وعليها مدار الأعمال لنيل رضوان الله تعالى واتقاء غضبه . والموفق لإدراك معانيها يسمى ممتثلا لأوامر الله تعالى مجتنبا نواهيه وناجيا عند الله تعالى حيث اهتدى إلى الصراط المستقيم قال تعالى — (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) — والسبيل والصراط والطريق كلها بمعنى وهى عبارة عن ملازمة الأعمال الصالحة التى توصل إلى الله تعالى كما شرع والطريق هو الوسط بين طرفين — وحيث كانت الأعمال كذلك فهى الطريق الموصل إلى الله تعالى والطريق إلى الله تعالى لا يكون إلا كاملا من كل الوجوه لسلامة العاقبة لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وهو الحق الذى شرعه الله تعالى وجعله جامعا لكل أنواع الكمالات والفضائل وأن جزئياته مندرجة تحت كلياته — إذ أن جميع الأحكام الشرعية لا تخرج عن أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته وهى محصورة بالضرورة والقضايا الحاصلة فى الكون غير محصورة ودخول ما لا ينحصر تحت المنحصر محال — فإذن وجب أن يكون فى الشريعة المحمدية أمور كلية

يدخل تحتها كل الجزئيات التى تكون كمالها فى ذاتها ولا يكون بدعة إلا ما يخرج عن حد الكمال — ومن هنا وجب القياس فى الأحكام الشرعية — وبهذا ينقطع قول الضالين إن الأمور التى لم تكن فى عصره ﷺ ولا فى عصر الصحابة بدعة أو نقص فى أصل التشريع ولا يعقل ذلك إذ المشرع فى الحقيقة هو الله تعالى العليم بمصلحة عباده وهو الذى جعله مستمرا صالحا لجميع الأزمنة لا ينسخ حتى لزمان ينسخ إذ لو لم يكن كذلك لاحتاج العالم إلى بيان آخر لما يتجدد فى أزمنتهم هذا والحمد لله — لو رجعنا إلى كل جزئية من جزئيات الكمال التى أمرها الآن سائد بين جميع المسلمين وتنكرها الفرق الضالة عن الحق لوجدنا أصلها من التشريع الشريف — لأن القرآن كلام القديم والعالم حادث خلقه الله تعالى بما ينطبق على أحكام القرآن بإذن هو صالح لكل زمان ولكل شخص وإلا لما صح قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) — (وتبيانا لكل شىء) (وتفصيل كل شىء) أو يبطل الرد إليه فى قوله تعالى : (فلو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أو لم يشمله بيان الصادق المصدوق ﷺ . الذى أمره ربه عز وجل فى قوله تعالى : (لتبين للناس ما نزل إليهم) - (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) — أو يلزم عليه عدم اصابة الأمة التى عصمها الله تعالى من الخطأ والضلالة وشهد لها تعالى بالعدالة بتوفيقه لها الحكمة والصواب قال تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون).

ومن هنا تعرف أن الله تعالى جعل أوضاع القرآن كلية . ولم يخف ذلك على ذوى البصائر النيرة إذ عرفوا أن الله تعالى جعل سنن تشريع

الأحكام لعباده التى يسيرون عليها على وفق ما تقتضيه أحوالهم بحيث يستطيعون القيام بها رأفة بهم ومراعاة لمصلحتهم الدينية والدنوية التى يرتضيها لهم شرعة ومنها . جاءت متتالية على ألسنة رسل من خيرة عباده من جنسهم (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وكلما انتهت حياة رسول أعقبه بآخر ولم يدع عباده هملا ضرورة احتياج نظام الحياة واستتباب الأمن وكمال العمران إلى ذلك وإلا انقلب الناس وحوشا ضارية يأكل بعضهم بعضا — وكان من جميل صنعه فى ذلك جل شأنه أن جعل شرع الرسول الجديد ينسخ الكثير من أحكام شريعة من قبله جامعا لفضائل شريعة من قبله زائدا عليها ما يتناسب مع حال من يرسل إليهم — هكذا سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا إلى أن شاء سبحانه وتعالى ارسال آخر رسول لبنى البشر بكتاب حافل ليس بجميع الشرائع فحسب بل بكل ما يتعلق بالمبدأ أو المعاد وما يحتاج إليه بنو الإنسان من كل ما يخطر لهم ببال . صالح لكل زمان لا تنقضى عجائبه — وكيف لا وهو تنزيل الحكيم العليم الخبير بجميع ما يحتاج إليه عباده فكان ما اشتمل عليه من البيان كرسول لكل زمان — وإن تشأ فقل إن رسول الله ﷺ أوسع الأنبياء والمرسلين علما فى كل النواحى لأن علم كل نبى بمقدار حاجة أمته . ولما كانت الأمة المحمدية آخر الأمم كان استعداد أفرادها للقبول شاملا لكل استعدادات الأمم السابقة وكانت أوسع دائرة فى القبول فاقتضى ذلك أنه ﷺ أوسع علما من كل الانبياء لذلك كان أفضلهم وشرعه شاملا وكانت أمته خير الامم .

(الإجماع ودليل وجوب العمل به وإثم من لم يعمل به)

الإجماع هو إتفاق مجتهدى الأمة بعد النبى ﷺ فى عصورهم على أى أمر كان من النفى أو الإثبات وفى كل عصر وزمان من المسلمين ممن ليسوا من أهل البدع والأهواء — وهو أحد الأدلة التى نصبها الشارع . وعن المزنى أنه قال : كنت عند الشافعى يوما : فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا فلما رآه ذا مهابة استوى جالسا وكان مستندا إلى أسطوانةوسوى ثيابه فقال له ما الحجة فى دين الله تعالى قال كتابه قال : وماذا ؟ .

قال سنة نبيه : ﷺ .

قال : وماذا ؟ قال إتفاق الأمة .

قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو فى كتاب الله تعالى . فتدبر ساعة ساكتا . فقال له الشيخ أجلتك ثلاثة أيام بلياليهن فإن جئت بآية وإلا فاعتزل الناس فمكث ثلاثة أيام لايخرج وخرج فى اليوم الثالث بين الظهر والعصر وقد تغير لونه فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس وقال : حاجتى فقال : نعم : أعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) — لم يصله جهنم على خلاف المؤمنين إلا وإتباعهم فرض . قال : صدقت وقام وذهب — وروى عنه أنه قال قرأت القرآن فى كل يوم وفى كل ليلة ثلاث مرات حتى ظفرت بها ونقل الإمام عنه أنه سئل عن آية فى كتاب الله تعالى تدل على أن الإجماع حجة فقرأ القرآن ثلثمائة مرة حتى وجد هذه

الآية ا هـ : فهذه الآية من أدل الدلالات و أصرح الآيات على حجة الإجماع وأنه الحجة فى دين الله تعالى بعد كتابه وسنة نبيه ﷺ وهى الآية التى توعد الله تعالى فيها منكر الإجماع والخارج عليه بأشد العذاب حيث قال عز وجل (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) — لم يصله جهنم على خلاف المؤمنين الا وإتباعهم فرض وخاصة أن سبيل المؤمنين عام ولا مخصص له قال : العلامة البيضاوى فى تفسير الآية تدل على حرمة مخالفة الإجماع لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة . وإتباع غير سبيل المؤمنين إما لحرمة كل منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما والثانى باطل إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد وكذا الثالث لأن المشاقة محرمة ضم إليها غيرها أو لم يضم وإذا كان إتباع غير سبيلهم محرما كان إتباع سبيلهم واجبا لأن ترك إتباع سبيلهم ممن عرف سبيلهم إتباع غير سبيلهم أ هـ : وقال تعالى : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) — قال العلامة البيضاوى فى تفسير الآية — « وتؤمنون بالله » يتضمن الإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به لأن الإيمان به إيمان بحق ، ويعتد به إذا حصل الإيمان بكل ما أمر أن يؤمن به وإنما أخره وحقه أن يقدم لأنه قصد بذكره لدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر إيمانا بالله سبحانه وتعالى وتصديقا به وإظهارا لدينه واستدل بهـــذه الآية على أن الإجماع حجة لأنها تقتضى كونهم آمرين بكل معروف ناهين عن كل منكر إذ اللام فيهما للاستغراق فلو أجمعوا على باطل كان أمرهم على خلاف ذلك أ هـ :
قال العلامة الشهاب :

قوله استدل بهذه الآية على أن الإجماع الخ أى إجماع هذه الأمة لأنها لاتجتمع على الضلالة كما نطق به « الحديث » ودلت عليه هذه الآية بالتزام لأنهم إذا أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لم يكن اجتماعهم على منكر وإلا لم ينهوا عنه لإتفاقهم عليه اه: وقال تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) قال العلامة البيضاوى فى تفسير الآية ذكر ذلك بعد ما بين أنه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضا للجنة أمة هادين بالحق عادلين فى الارض واستدل به على حجة الإجماع لان المراد منه أن فى كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه الصلاة والسلام (لاتزال من أمتى طائفة على الحق إلى أن يأتى أمر الله) — إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة فإنه معلوم — والحديث رواه الشيخان من حديث معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنهما والمغيرة بن شعبة رضى الله عنه — وقد قاله فى تفسير الآية — اه — وقال العلامة الفخر فى تفسير هذه الآية — : اعلم أنه تعالى لما قال: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) فأخبر أن كثيرا من الثقلين مخلوقين للنار اتبعه بقوله: (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) — ليبين أيضا أن كثيرا منهم مخلوقون للجنة.

واعلم أنه تعالى ذكر فى قصة موسى قوله (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فلما أعاد الله تعالى هذا الكلام هاهنا حمله أكثر المفسرين على أن المراد منه قوم محمد ﷺ — روى قتادة وابن جريج عن النبى ﷺ (أنها هذه الامة) — وروى أيضا أنه عليه الصلاة والسلام قال (هذه فيهم وقد أعطى الله قوم موسى مثلها) — وعن الربيع

ابن أنس أنه قال قرأ النبي ﷺ هذه الآية فقال (إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم) وقال ابن عباس يريد أمة محمد عليه الصلاة والسلام المهاجرين — والأنصار — قال الجبائي هذه الآية تدل على أنه لا يخلو زمان البتة عمن يقوم بالحق ويعمل به ويهدى إليه وإنهم لا يجتمعون في شيء من الأزمنة على الباطل لأنه لا يخلو إما أن يكون المراد زمان وجود محمد ﷺ وهو الزمان الذي نزلت فيه هذه الآية أو المراد أنه قد حصل زمان من الأزمنة حصل فيه قوم بهذه الصفة المذكورة أو المراد ما ذكرنا أنه لا يخلو زمان من الأزمنة عن قوم موصوفين بهذه الصفة والأول باطل لأنه قد كان ظاهرا لكل الناس أن محمدا ﷺ وأصحابه على الحق فحمل الآية على هذا المعنى يخرجه عن الفائدة والثاني باطل أيضا لأن كل أحد يعلم بالضرورة أنه قد حصل زمان ما في الأزمنة الماضية حصل فيه جمع من المحقين فلم يبق إلا القسم الثالث وهو يدل على أنه ما خلا زمان عن قوم من المحقين وأن إجماعهم حجة وعلى هذا التقرير فهذا يدل على أن إجماع سائر الأمم في الأزمنة الماضية حجة في الدين وهو الدليل الثالث الذي ثبت به أحكام هذا الدين اهـ: هذه أدلة الإجماع التي أمر الله عز وجل كل من آمن به سبحانه وتعالى وبنبيه عليه الصلاة والسلام أن يتبعها ويؤمن بها ولا يخرج على أهله وهم الأئمة في الدين الذين ألهمهم الله تعالى أن يكونوا قادة لعباده وكعبة تبيان ما أجمل في كتابه وسنة نبيه الذين كان الواحد منهم لا يثبت الحكم الشرعي إلا بعد أن يأتي عليه بالشهود المستفيضة ولا بد أن يكون مصدرها الكتاب والسنة والإجماع . ولا شك أن هذه هي الأمة التي تفهم كليات الأحكام وجزئياتها

التى لا تفهم حقائق ما اشتملت عليه إلا كذلك وقد قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أى بمثل هؤلاء الرجال المؤهلين فى كل نواحى أضربه حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وخاصة أنهم قد وفقوا لفهم بيانه ﷺ وعرفوا أنه من حسن بيانه الشريف بين فى كل حكم من الأحكام الكلية حد طرفيه أعلاه وأدناه وأمر بالسير على خيرها الوسط لا إلى جانب الإفراط ولا التفريط قال تعالى (وما يعقلها إلا العالمون) . الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغى وعنه ﷺ أنه لما تلا هذه الآية قال : (العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته وأجتنب سخطه) .

القيـــاس

عرفه الأصوليون بتعاريف كثيرة . والمختار منها عند الآمدى وابن الحاجب — أنه (مساواة فرع لأصل فى علة حكمه ، وهو أحد الأدلة التى نصبها الشارع وأوجب العمل به وذلك لأن أقواله ﷺ وأعماله وتقريراته محصورة والقضايا الحاصلة فى الكون غير محصورة ودخول ما لا ينحصر تحت المنحصر محال فإذن وجب أن يكون فى الشريعة المحمدية أمور كلية تدخل تحتها الجزئيات التى تكون كمالا فى ذاتها ولا يكون بدعة إلا ما يخرج عن حد الكمال . ومن هنا وجب القياس فى الأحكام الشرعية على ما قرره العلامة ابن رشد هذا وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) قال العلامة البيضاوى فى تفسير الآية يريد بهم أمراء المسلمين

فى عهد رسول الله ﷺ وبعده ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية ــ أمر الناس بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعدل تنبيها على أن وجوب طاعتهم ما داموا على الحق ــ وقيل هم علماء الشرع لقوله سبحانه وتعالى (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) « فإن تنازعتم » أنتم وأولو الأمر منكم « فى شىء » من أمور الدين وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد فى حكمه بخلاف المرءوس ــ إلا أن يقال الخطاب لأولى الأمر على طريقة الإلتفات « فردوه » فارجعوا فيه « إلى كتابه « والرسول » بالسؤال منه فى زمانه ﷺ والرجوع إلى سنته بعده . واستدل به منكرو القياس وقالوا إنه سبحانه وتعالى أوجب رد المختلف فيه إلى الكتاب والسنة دون القياس ــ وأجيب بأن رد المختلف فيه إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ فإنه يدل على أن الاحكام ثلاثة مثبت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فإن الإيمان يوجب ذلك « ذلك » أى الرد « خير » لكم « وأحسن تأويلا » عاقبة أو أحسن تأويلا من تأويلكم بلا رد ــ اهـ : إذا عرفت هذا فاعلم أن القياس هو طلب أحكام الفروع من الاصول المنصوصة بالعلة المشتركة وقد جعله الله تعالى ضروريا فى الدين بقوله تعالى (لتبين للناس ما نزل إليهم) قال العلامة البيضاوى التبيين أعم من أن ينص بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل اهـ : وقد تقدم لك الدليل العقلى على أن القياس ضرورى فى الدين

وقال العلامة الفخر ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة والإجماع أقوى دليلا من هذا العمل ا ﻫ .

فقد بان لك من كل هذا أن القياس واجب الأخذ به وأنه مأمور به من رب العالمين ومن بيان سيد المرسلين وإذا حكم به المجتهد فقد حكم بما أنزل الله تعالى وإذا تبعه المقلد فقد تبع قول الله تعالى : وقول رسول الله ﷺ ا ﻫ : من الفخر ومن أوضح الأدلة على القياس حديث رسول الله ﷺ الذى يروى فى الصحاح بالسند لأبى هريرة رضى الله عنه قال : (جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى ﷺ فقال : إن امرأتى وضعت غلاما أسود فقال له : هل لك من ابل فقال نعم قال : فما ألوانها قال : حمر قال : فهل فيها من أورق قال : نعم ؟ فأنى ذلك قال : عسى أن يكون قد نزعه عرق قال : وهذا عسى أن يكون قد نزعه عرق .

الاستنباط

هو الإستخراج يقال استنبط الفقيه إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه . وهل القياس استنباط أو داخل فيه خلاف . فالاستنباط أيضا أمر ضرورى فى الدين وهو الحجة الخامسة فى دين الله تعالى الذى شرعه لعباده وقد لفت نظرهم إليه فى محكم آياته حيث قال جل شأنه (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) قال العلامة الفخر فى تفسير الآية فى أولى الأمر قولان ، أحدهما إلى ذوى العلم والرأى منهم — والثانى إلى أمراء السرايا وهؤلاء رجحوا هذا القول على الأول قالوا لأن أولى الأمر الذين لهم الأمر على الناس وأهل العلم ليسوا كذلك

إنما الأمراء هم الموصوفون بأن لهم أمرا على الناس — وأجيب عنه بأن العلماء إذا كانوا عالمين أوامر الله تعالى ونواهيه وكان يجب على غيرهم قبول قولهم لم يبعد أن يسموا بأولى الأمر من هذا الوجه ولقد أحسن من قال :

إن الأكابر يحكمون على الورى
وعلى الأكابر تحكم العلماء

ويدل عليه قوله تعالى : —

(ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون).
فأوجب الحذر بانذارهم والزم المنذرين قبول قولهم فجاز لهذا المعنى إطلاق إسم أولى الأمر على العلماء. ودلت تلك الآية على أن القياس حجة فى الشرع وذلك لأن قوله الذين يستنبطونه منهم صفة أولى الأمر وقد أوجب الله تعالى على الذين يجيئهم أمر من الأمن أو الخوف أن يرجعوا فى معرفته إليهم ولا يخلو إما أن يرجعوا إليهم فى معرفة هذه الوقائع مع حصول النص فيها أولا مع حصول النص فيها والأول باطل لأن هذا التقرير ينبغى الاستنباط لأن من روى النص فى واقعة لا يقال إنه استنبط الحكم — فثبت أن الله تعالى أمر المكلف برد الواقعة إلى من يستنبط الحكم فيها ولو لا أن الاستنباط حجة لما أمر المكلف بذلك — فثبت أن الاستنباط حجة — والقياس إما استنباط أو داخل فيه فوجب أن يكون حجة . إذا ثبت هذا فنقول إن الآية دالة على أمور أحدها أن فى أحكام الحوادث ما لا يعرف بالنص بل بالاستنباط — وثانيها أن الاستنباط حجة — وثالثها — أن العامى يجب عليه تقليد العلماء فى أحكام الحوادث —

ورابعها أن النبى ﷺ كان مكلفا بإستنباط الأحكام لأنه تعالى أمر بالرد إلى الرسول وإلى أولى الأمر — ثم قال تعالى (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ولم يخصص أولى الأمر بذلك دون الرسول وذلك يوجب أن الرسول وأولى الأمر كلهم مكلفون بالاستنباط — اهـ .

هذا وقد عرفت من البرهان العقلى المتقدم — أن أقواله وأفعاله وتقريراته ﷺ محصورة والقضايا أى الحوادث الحاصلة فى الكون غير محصورة ودخول ما لا ينحصر تحت المنحصر محال فإذن وجب أن يكون فى الشريعة المحمدية أمور كلية يدخل تحتها كل الجزئيات التى تكون كمالا فى ذاتها فلا يكون بدعة إلا ما يخرج عن حد الكمال .

ومن هنا وجب القياس والاستنباط فى الاحكام الشرعية . ذكر ما يقرب من هذا . العلامة ابن رشد . فى بداية المجتهد .

وأما الذين قالوا إن القياس والرأى والإجتهاد باطلة لا يعرف بها شىء أصلا وأبطلوا القياس أصلا وفرعا وادعوا أن الحكم لا يثبت إلا بالنص ولا مدخل للإختيار والإجتهاد . فنقول لهم :

إن ذلك النص إما أن يكون متواترا فيوجب العلم ضرورة أو استدلالا أو يكون من أخبار الآحاد . ولا يجوز أن يكون طريقة التواتر الموجبة العلم ضرورة أو دلالة . إذ لو كان كذلك لكان كل مكلف يجب عليه الاذعان بذلك وإذا تعارضت النصوص وتوافقت فى الامر الواحد لم يميز أحدهما بعينه إذ ليس أحد الامرين أولى بالنص من الآخر . إذن بطل ثبوت النص لعدم الطريق الموصل إليه بعينه فحينئذ يثبت الإجتهاد والإختيار اهـ القرطبى .

ومن أدلة الإستنباط أن الإمام عليا رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه . قد استنبط مدة أقل الحمل . وهى ستة أشهر . من قوله تعالى (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) مع قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) فإذا فصلن الحولين من ثلاثين شهرا بقيت ستة أشهر .

وكان هذا الإستنباط منقذا لامرأة وضعت من ستة أشهر ورفع زوجها أمرها لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فاهتم بالأمر . فكان استنباط على رضى الله عنه منقذا للموقف وصار حكما فى الإسلام .

ومن أهم الردود على هؤلاء المنكرين من غير القرآن ما كان من معجزاته الشريفة ﷺ بانهم يكونون كذلك فى مستقبل الأزمنة وهو ما رواه أبو داود عن أبى رافع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا أعرفن الرجل منكم يأتيه الأمر من أمرى إما أمرت به أو نهيت عنه وهو متكئ على أريكته فيقول ما ندرى ما هذا ؟ عندنا كتاب الله وليس هذا فيه . وما لرسول الله أن يقول ما يخالف القرآن وبالقرآن هداه الله » وبما رواه الترمذى عن أبى رافع أيضا أن رسول الله ﷺ قال « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمرى بما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

وبما رواه أبو داود والترمذى عن المقدام بن معدى كرب قال : قال رسول الله ﷺ « الأهل عسى رجل يبلغه الحديث عنى وهو متكئ على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »

هذه رواية الترمذى ورواية أبى داود قال : قال رسول الله ﷺ « ألا وانى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » .

فى هذه الرواية أراد ﷺ أن يبين للناس ما أعطاه الله عز وجل من سعة البيان والتبيين الذى ألزمه تعالى به لعباده مما هو ليس فى صريح القرآن المجيد وهو داخل تحت قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وهو كثير جدا وهو مصداق قوله الشريف فى الرواية عن الإمام أحمد رضى الله تعالى عنه « ألا وانى أوتيت القرآن وعشرة أمثاله ، فى قوله الشريف لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد إلى آخر الحديث السابق ليس هو فى صريح القرآن ومثل ذا كثير فى الأحكام الشرعية كحديث ميراث الجدة . وكبيان عدد ركعات الصلاة فى الأوقات وتقبيل الحجر الأسود وغير ذلك مما لا يسعنا ذكره هنا .

فالمطموس على قلوبهم لايرونه ولايهتدون إليه والله الهادى وهو الموفق لمن يشاء من عباده .

قد قدمت لك الأدلة العقلية والنقلية على ضرورة حكم القياس والاستنباط والأدلة على اشتمال القرآن عليهما للحاجة البشرية إلى كل من القياس

والاستنباط في الدين ، ولا يخفى عليك أن الله تعالى لفت نظر عباده إلى ذلك في كتابه العزيز كما قدمت لك إذ لولاهما لكان القرآن قاصرا عن بيان أحكام القضايا المستحدثه في مستقبل الأزمنه

ولا يتفق ذلك مع كونه تبيانا لكل شيء (ولا تفصيل كل شيء) ولم يصدق عليه (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ولكان بيانه ﷺ قاصرا عن تفصيل كل شيء . كيف وقد قال : الله تعالى له : (لتبين للناس ما نزل إليهم) قال العلامة البيضاوى التبيين أعم من أن ينص بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل وفي الحديث (ألا وإني أعطيت القرآن ومثله معه الحديث) وفي أخرى وعشرة أمثاله الحديث وفي الحديث (إن لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حرف حد ولكل حد مطلع) وقد جاء عن الصديق رضى الله تعالى عنه في الأثر المشهور « لوضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى » وقد جاء عن الفاروق رضى الله تعالى عنه في الأثر المشهور « تحدث للناس أقضية بحسب ما يتجدد لهم في أزمنتهم » وقال أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر

ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ا هـ) وقال أيضا رضى الله عنه وكرم وجهه ، لو شئت أن أوقر سبعين بعيرا من تفسير الفاتحة لفعلت ، ا هـ .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه من أراد علم الأولين فليثور القرآن — أى يفتش فيه — وقال أبو الدرداء رضى الله عنه — لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها — ومثل هذا من فتح الله تعالى قلبه ونور بالإيمان فؤاده فيكون من مصداق قول الصادق المصدوق ﷺ (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم) — هذا . واعلم أيضا أنه لو لم يكن القرآن وبيان السنة مشتملا على القياس والاستنباط لكان الناس فى أشد الحاجة إلى البيان فيما يتجدد لهم بحسب أزمنتهم ويحتاجون إلى تنزيل من عند الله جديد وضرورة ذلك تقضى بإرسال رسول جديد كما هى سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا ولوكان مقصورا على زمن مخصوص لكان الناس فى شأن العمل به حيرى — فإن عملوا بمقتضى أصل تنزيله والأسباب التى نزل بسببها كان الناس فيه رجعيين — وإن لم يجدوا فيه أحكاما تتمشى بحسب أزمنتهم كانوا مخالفين ولكان القرآن تنتهى عجائبه وكان يشبه كلام البشر لا يعمل منه إلا بخصوص سببه لا بعموم لفظه هذا .

ومن بالغ الحكمة أن تقول على الله تعالى العليم بكل شىء بأن حوادث الموجودات لا تقف عند حد فلا بد لهم من قانون يرجعون إليه عند التنازع وابتكار المحدثات ولا نبى بعد خاتم الأنبياء والمرسلين ولا كتاب بعد القرآن المبين فوجب أن يكون القرآن حافلا بكل ما يحتاج إليه العالم فى كل زمان يرجعون إليه فأوجب القياس والاستنباط وحث على الأخذ

بها وفرضه على أهله وهم يبينونه للناس فى كل زمان فهم رجال خصهم الله تعالى بذلك وفتح عليهم بالنظر فى المعقول والمنقول وقد قال فيهم ﷺ (لاتزال طائفة من أمتى على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله كلما خلق الدين جددوه) وقد سبق أن قدمنا لك أن من حسن بيانه ﷺ أنه أرشد إلى بيان هذه الجزئيات المندرجة تحت تلك الكليات والسنة بعد القرآن مملوءة بذلك وهى مسألة دقيقة لاينكرها إلا من قصر عقله عن ادراكها — هذا ومن حكم الكبير المتعال أنه أهّل عبادا من خلقه وجعل فيهم الصلاحية لفهم كل ناحية من نواحى الكتاب والسنة ولفت الراغب النظر فيهما بقوله (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) فمثل هذه الآية تجد مدلولها عاما فى جميع ما وجد من أنواع العلوم والفنون والمعارف مما هو معلوم الآن ومما مضى ومما سيعلم بعد — فمثلا لو سئلت — لم كانت دقات قلب الحيوان على خمسة أنواع ؟ فيجيبك الطبيب الحاذق على ذلك أو لماكانت عدد مفاصل تراكيب جسم الإنسان على ثلاثمائة وستة ستين مفصلا يجيب الطبيب العالم بالتشريح — أو ما نسبة كل عقار للآخر فى تركيب الدواء الفلانى للمرض الفلانى يجيبك الأجزاجى « صيدلى » — أو كم قطع أى آلة من الآلات التجارية أو الكهربائيه مثلا يجيبك الميكانيكى أو الكهربائى أو هذه الحجرة كم ألف من قطع الطوب أو الحجارة تأخذ على مقدار كذا من الأمتار فى البناء يجيب المعمارى — أو الأردب من القمح كم رغيف من الخبز يجيبك عن ذلك الخباز أو كم قطعة أجزاء الساعة يجيبك الساعاتى وهكذا « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » فمن تأمل بعين الفكر وجد أن الآية الكريمة ما تركت شاردة ولا واردة إلا وقد شملتها

فيتضح لك أن الله تعالى خلق عبادا مؤهلين بمقتضى تكوينهم لما خلقوا لأجله (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فما من فرد من أفراد الموجودات إلاوله فى تكوينه أثر طلبه منه الحياة وبعد الممات . والممات هو عبارة عن انتقاله من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى وربما كان النفع والانتفاع به فى الحياة الثانية أكثر من الحياة الأولى مادامت الدنيا التى جعلها الله تعالى دار النفع والانتفاع وذلك ثابت بالدليل العقلى والنقلى كما قدمنا آنفا وسيأتى ما هو أبين إن شاء الله تعالى .

وعلى هذا فالموجودات مستمرات بمقتضى تكوينها لهذا فلا تختلف عن إبراز ما خلقت له وعملها ميسر لها بمقتضى ربط المسببات بالأسباب ومن أنتج شيئا من ذلك سماه الله تعالى عالما به وأمر عباده بالرد إليه فيما انبهم عليهم فى شأن هذا العلم « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون » ومثل ذا كثير فى جميع مختلف الأحكام الشرعية ووسائلها التى لاتعقل إلا بها . فما من ناحية من نواحيها إلاوقد أوجد الله تعالى الجماعة المستفيضة فيها لتكون لهم الحجة بالإجماع على صحة تلك الأوضاع فى جميع أنواع العلوم والمعارف التى تضمنها القرآن الكريم مما هو ضرورى وكمالى لبنى البشر فى مستلزمات حياتهم — إذ الوجود كله فى هذه الدنيا مبنى على ربط المسببات بالأسباب حكمة بالغة منه تعالى للعباد لوصولهم لأغراضهم فى كل معنى مراد وليترتب على ذلك الثواب والعقاب فى يوم المعاد .

هذا ولايخفى عليك أن جميع أفراد الموجودات قد خلقت مشتملة على حالتين حالة مادية وحالة روحية . فتعمل الأعمال المادية بمقتضى تكوينها

الذى خلقت له الماديات وهذا ما يسمى بالأسباب الظاهرية وتؤدى الروحانيات بمقتضى تكوينها الذى خلقت له الروحانيات وهذا ما يسمى بالباطل والحقيقة والأسرار .

ولايخفى عليك أيضا أن لله تعالى فى خلقه خصائص ومميزات . فقد جعل سبحانه من بنى آدم من تكون المادة فيه غالبة على روحانيته فهذا لا ينظر إلا إلى الظاهر ولا يعول إلا عليه ولا ينتظر النتيجه إلا منه . وهذا هو الجم الغفير والعدد الكبير من الموجودات ولا تعمر الدنيا إلا بذلك وبه جاء التشريع وبيان الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيان حكمة التكاليف الشرعية .

ومنهم من جعل الله تبارك وتعالى روحانيته غالبة على ماديته وهذا لا ينظر إلا إلى تلك الأسرار ولا يعول إلا عليها ولا يسأل إلا أهلها ولاتنتج له الأعمال إلا منها .

وبهذا كله جاء القرآن الكريم قال تعالى فى الروحانيات « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » وقال تعالى « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون » وقال تعالى فى الماديات (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وقال تعالى فى مجموع الأمرين (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة

وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا) .

هذا وقد لفت الله تعالى نظر عباده على لسان حضرته ﷺ فى كتابه العزيز إلى أن من عباده من لا شأن لهم بالحياة الدنيا إلا بالتعلق الروحانى لقوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيـاة الدنيا » وفى هذا الشأن قال صلوات الله وسلامه عليه : « أبغونى الضعفاء فإنما تنصرون بضعفائكم » بدعواتهم وتحويطاتهم فأهل الروحانية هم أهل الله وخاصته ومن جمله الله تعالى مصدرا لآثار فعل من أفعاله جل شأنه تنسب إليه تلك الأفعال مادية كانت أو روحانية وإليك الآية الفذة الجامعة التى ما تركت صغيرة ولا كبيرة من جميع أقوال وأعمال العباد إلا واندرج تحتها قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » إذ نتائج الأعمال لاتخرج عن القول أوالفعل أو ما تركب منهما .

ولايخفى عليك إجماع عقلاء الأمة من المحققين على أن فى طى ظواهر الآيات القرآنية اشارات خفية تنكشف لأهل التحقيق من رواسخ العلماء ومعرفة ذلك بمحض الإيمان وكمال العرفان . وقدمنا لك فى قوله تعالى « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم » لعلمه الذين يستنبطونه منهم أن حضرته ﷺ مكلف بالاستنباط بأنه تعالى أمر بالرد فى المختلف فيه إلى الرسول وإلى أولى الإمر ثم لما قال تعالى (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ولم يخصص أولى الأمر بذلك دون الرسول أوجب ذلك أن

الرسول وأولى الأمر كلهم مكلفون بالاستنباط — ثم قال تعالى (لتبين للناس ما نزل إليهم) فالتبيين أعم من أن يعنى بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل وقد سبق أن من حسن بيانه ﷺ أنه أرشد إلى بيان هذه الجزئيات المندرجة تحت تلك الكليات كقوله للسائل عن الفرائض وفى كل فرض يقول السائل « وهل علىّ غيرها ؟ » فيقول ﷺ « إلا أن تطوع » الحديث فى الصحاح ومنها قوله ﷺ عند الإمام أحمد « مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » وفى الصحاح « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » الحديث . ولا يفهم هذا البيان ويشرح للأمة ما انطوت عليه ظواهر القرآن إلا من أوجدهم الحق عز وجل وأهلهم لذلك بمقتضى تكوينهم لحفظ دينه ووضع دعائمه التى تبنى عليها جميع مستلزمات ذلك الدين الخالد الأبدى الذى لا يبطله ولا يغير ما فيه جور جائر ولا عدل عادل ما بقيت الدنيا قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أى برجال أهلهم ووفقهم للعمل بكل ما يحتاج إليه فى جميع أضربه كى لا يتسوره متدلس ولا يتطرق إليه مارق مغرور مجنون مفتون .

« مهمة ودقيقـــة »

وهى من الأمور التى قد ضل عنها أول ضال لهم ولم يعرف طريقها أحد من أتباعه وهى مسألة من المسائل الدقيقة التى لا يفهمها إلا أولو النهى لا من قصر عقله عن فهم حقائقها وهى أنه مما يلحق بمختلف أنواع التشريع معرفة أسرار الأفعال الإلهية التى هى من أصل حكمة التشريع وهى تظهر عند ربط المسببات بالأسباب وقد لاتكون إلا لخرق العادة أو للتشريع

أو لبيان سنن الكون مما يصدره الحق عز وجل على يدى من خصه بذلك من عباده فتكون لحكمة لا يعلمها إلا هو . سواء أعلمها من أجرى الله تعالى على يديه هذا العمل أم لم يعلمها ويكون قائما بذلك العمل كباقى الموجودات التى تؤدى بمقتضى تكوينها ما خلقت لأجله وهى من الأمور التى ذكرها الحق عز وجل وجعلها دلائل للمعرفة فى مثل هذه الخوارق وأنه شرعها تعالى لعباده فلا تنكر على أهلها وهاك قصة سيدنا موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر عليه السلام راجع بيان الصادق المصدوق ﷺ فى الكتب الصحاح من السنة المطهرة بعين البصيرة تنكشف لك حقائق ترى تحتها العجب العجاب من حكم رب الأرباب وسماه علما يخص به من يشاء من عباده فلا يسأل فيه إلا أهله وهو أحد العلوم الثلاثة التى عنى الله تعالى بذكرها فى كلامه العزيز وما عداها فهو وسائل لمعرفة تلك العلوم التى لم يرها الضال الأول لهم ولم يشم لها رائحة متابعوه للآن ولم يسمع بها أتباعهم .

وإليك أيضا علم خواص الأسماء والصفات التى للحق عز وجل وكيفية تأثيرها فى الموجودات . وكيف تنفعل لها الكائنات (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) فمثل هذه الأحوال التى جاءت مبينة بالكتاب العزيز والسنة المطهرة فلا يسأل عنها إلا أهلها وما يصدر عنها من الخوارق للعادات لا يكون إلا بمحض إرادة الله تعالى وسبق علمه بما يصدر من الأعمال بكل جزئية من الحركة والسكون والزمان والمكان والأشخاص فلا شىء عنده جل شأنه إلا بمقدار . قال تعالى « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » وإذا كان الرسول لا يأتى

بآية إلا بإذن الله فيكون غير الرسول من باب أولى هكذا يجب الإيمان بذلك فى مثل هذه الخوارق ونسبة هذا الفعل إلى العبد لجرية على يديه نسبة حقيقية .

والفعـــل فى التأثير ليس إلا
للواحـــد القهار جل وعلا

وحينئذ يكون محل العبد داخلا فى تكوينه وهى مسألة دقيقه لا يعقلها إلا العالمون لا من قصر عقله عن إدراكها . وصحت نسبة الفعل إلى العبد إذ هو المباشر للفعل وبذلك تصح نسبة الفعل إليه حقيقة إذ لا واسطة بينه وبين الحركة إلى الفعل وبهذ يجزى به اثابة أو عقابا .

ثم إن لهؤلاء الأشخاص الذين جعلهم الله عز وجل مصدرا لآثار صفاته بمقتضى تكوينهم خرق العادة إما بطريق القبض المطلق الذى يختص الله تعالى به من يشاء من عباده فيكون من قبيل قوله تعالى (وعلمناه من لدنا علما) واما بطريق الجد والإجتهاد والتوفيق الإلهى بعد معرفة الأسباب التى شرعها سبحانه وتعالى لعباده وسلوك الطريق حتى وصل للغاية المطلوبة التى شاء الله تعالى له فيها فيكون من قبيل قوله تعالى « إنما أوتيته على علم عندى » وكل هذا من فضل الله تعالى على عباده قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » وقال تعالى « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » وذلك مثل ما أعطى الله تعالى لأهل الدنيا وزينتها فمنهم من تراه لا يفقه شيئا ولكن الله تعالى قد أغدق عليه الرزق من كل النواحى وهو لم يأخذ فى الأسباب شيئا . ومنهم من تراه مغلوقا

عليه مع الأخذ فى الأسبات ومنهم من تراه محصلا الضرورى بالأخذ فى الأسباب ومنهم من تراه لو اتجر فى الزيت لمحا الله آية الليل ومثل هذا فى أهل الأسرار السائرين إلى الله المفاض عليهم كل بقدر ما خلق لأجله :

ولم تكن نبوة مكتسبة
ولو رقى فى الخير أعلى عقبه
بل ذلك فضل الله يؤتيه لمن
يشاء جل الله واهب المنن

وإذا كان هذا بمحض فضل الله تعالى وبما اقتضاه تكوينه لعبده وخصه به فى هذه الحياة الدنيا فكيف يسلبه إياه برجوعه إلى الحياة الآخرة التى هى أحيا من حياة الدنيا وأعظم وأكبر وأوسع وكيف هذا العبد يعدم هذه الخصوصية ويفقد هذه المزية بعد أن يخرج من القيود الدنيوية إلى الإطلاق الأخروى . وخاصة أهل الأسرار الذين قال الله تعالى فيهم فى الحديث القدسى « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » الحديث .

هؤلاء الذين جعل الله تعالى تكوينهم على ذلك وجعل الموجودات تنفعل لهم متى شاءوا « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » فإنها لاتتأخر عن طلبهم وهى مخلوقة لهم كذلك . إذ هو فى هذه الحالة العبد الذى تحققت فيه العبودية فيقول للشىء كن فيكون ولقد أحسن بعض العارفين بأسرار المكونات للحق عز وجل وحكمة وجودها فقال :

من ذاق طعم شراب القوم يدريه
ومن دراه غدا بالروح يشريه

بهم تصرفه فى الكائنات فما
يشاء شاءوا وما شاءوه يقضيه

وفى هذا المعنى أيضا قال بعض العارفين بالله تعالى وبأسرار موجوداته وحكمة وجودها :

إذا ما رأيت الله فى الكل فاعلا
رأيت جميع الكائنات ملاحا
وإن أنت لم تشهد محاسن صنعه
جهلت فصيرت الملاح قباحا

فلست أدرى يا أخا العقل إن لم تكن هذه الموجودات هى مظهر آثار الصفات وهى أفعاله المرادة له جل وعلا ففى أى شىء تظهر آثار تلك الصفات ؟ وكيف بغيرها يعرف عز وجل ؟ ومن بغيرها يعرفه تبارك وتعالى ؟ وما أجمل قول العارف أيضا حين سئل عن حكمة وجود هذه الموجودات بقول القائل له ما مراد الحق من هذا الخلق ؟ فقال ما تراهم عليه . نسأل الله تعالى تنوير البصر والبصيرة حتى تتحقق بنور اليقين . .

الفصل السادس

نذكر فيه حكم الغيبة فى الشرع فنقول :

مما تجب مراعاته ولفت النظر إليه ، حكم الكلام فى الغير حيا وميتا ، غائبا وحاضرا .

وهذه مسألة قد اضطرب فيها كلام الناس بتثبت وغير تثبت ، وهى

هل الكلام فى حق الناس عموما وخصوصا جائز أو غير جائز ؟ وأيهما أكمل وأفضل ؟ وما حكم الغيبة فى هذه الحالة ؟ فنقول :

إن الكلام فى الناس يختلف بحسب الدواعى والمقتضيات من الأحوال إذ قد يكون الكلام حراما فى حالة ويكون واجبا فى غيرها وإنا معشر المسلمين يجب علينا أن نقتفى كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين إذ قد أمر الله تعالى أنبياءه فى بعض مواضع الدعوة إليه تعالى بالرفق واللين وفى أخرى بالشدة والغلظة كل ذلك فى القول والفعل وعلى هذا كان بيانه ﷺ قال تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال ﷺ (المسلم أخو المسلم) الحديث وفى الآخر (وكونوا عباد الله إخوانا) الحديث وقال تعالى (وليجدوا فيكم غلظة) وقال تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم) وقال ﷺ (بئس أخو العشيرة أو أخو القوم) الحديث يرويه البخارى وهذا بالنسبة للدواعى والمقتضيات — وأما بالنسبة للعقائد والصفات — فقد لعن الله تعالى ورسوله ﷺ المجوس واليهود والنصارى والمشركين والملحدين وأباح للناس لعن هؤلاء ومن على شاكلتهم فى المبدأ والعقيدة مهما اختلفت طرائقهم وأحوالهم قال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) وقال ﷺ (أترعون أن تذكروا الفاجر بما فيه ؟ أذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس) رواه مسلم هذا ورتب الله تعالى الوعيد الشديد لمن يتخطى معانى كلامه العزيز وبيان رسوله الكريم وما أجمع عليه عقلاء الأمة فى قوله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله

ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) — وقد سمى الله تعالى كل هذه الفرق وبينها فى كلامه العزيز وأمر رسوله ﷺ أن يجاهرهم بها وجعل المجاهرة بها دينا فقال تعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) وفى الحديث (بايعنا رسول الله ﷺ وعلى أن لا تأخذنا فى الله لومة لائم) الحديث وفى هذا القدر كفاية لأن الكلام فى هذا الميدان واسع ، لا يسعنا تفصيله فى هذا المقام .

وأما جواز ذلك وعدمه فإنه يختلف باعتبار حال المتكلم والمتكلم فيه فإن كان المتكلم عاملا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فإنه لا يضيره مهما كان المتكلم فيه . كحال من سأله الحجاج وكان مشهورا بحفظ القرآن قائلا ما هو ركوب قوله تعالى (أمن هو قانت آناء الله ساجدا وقائما) فقال له ركوبها قوله تعالى (قل تمتع بكفرك قليل انك من أصحاب النار) . وآخر قال : له أيضا فى وجهه لما سقط الحجاج فى البحر فسقط عليه مسرعا وأخرجه فقال الحجاج أرجو جوارا أم نوالا وتعرف أنى ظالم قال خشيت أن تموت غريقا فتكون شهيدا . وكسعيد ابن المسيب وغيرهم وغيرهم حتى فى زماننا هذا ممن حفظهم الله تعالى بقوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) . وبقـــوله تعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) هؤلاء ومثلهم يجوز لهم الكلام لأنهم على قدم الرسل ولا تأخذهم فى الله لومة لائم وقليل ما هم فى كل عصر والحمد لله أرجو الله تعالى أن أكون منهم إذ بتوفيقه تعالى كم لى من المواقف مع من يستحيل لغيرى أن ينطق أمامهم ببنت شفة

وأما غيرهم وهم ضعفاء الإيمان فلا يجوز لهم ذلك لئلا يلحقهم الضرر

وهم فى الواقع لايتكلمون لأن الله تعالى جعل فى عباده خلقا مخصوصين أهلهم بمعنى أنه جعل فى تكوينهم هذا الإستعداد وذلك إما أن يكون الله قد جعل لهم نفوذ الكلمة برياسة أو غيرها كما حصل من سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما ولى معاوية على الشام وكان قد ذهب أبوه لزيارته فلما حضر بذخائر من الشام أرسلها إلى منزله وجاء بنفسه إلى عمر رضى الله عنه فنظر عمر إلى يد أبى سفيان وإذا بها خاتم فقال ما هذا؟ قال خاتم. فقال أرنيه فخلعه أبو سفيان وناوله إياه فناوله الفاروق رضى الله تعالى عنه لرجل فأرسله به إلى بيت أبى سفيان وقال قل بأمارة هذا هاتوا كل ما جيء به من الشام فجيء بها فقال عمر رضى الله عنه : أكان لابنك هذا حين ولى، وضمه لمال المسلمين — ومثل هذا من خير المسلمين كثير.

وإما أن يكون بطريق العمل بالكتاب والسنة فلا تأخذهم فى الله لومة لائم — ومن عدا هؤلاء فعدم كلامهم أولى بهم. وهم بطبعهم يجنحون إلى قوله تعالى (عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) وهم لايعرفون للآية معنى فإن الإهتداء لايتم إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقد روى الترمذى. عن قيس بن أبى حازم رضى الله عنه. قال : قال : أبو بكر. بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أيها الناس، انكم تقرءون هذه الآية وتضعونها غير موضعها (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنما سمعنا رسول الله ﷺ يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب.

الحديث والله تعالى يقول و هذا (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ويقول تبارك وتعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ويقول تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) ويقول ﷺ ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، الحديث ، والجهاد ماض ، الحديث وخاصة العلماء العاملين فالله تعالى أوجب عليهم الجهاد كما أوجبه على الأمراء وكافة المسلمين وفى هذا القدر كفاية .

وأما الغيبة التى هى عبارة عن ذكرك الشخص بما يكره فإنها تختلف باختلاف الأمر الداعى إليها وذلك الأمر الداعى إما أن يكون بفعل تنفر منه طباع العقلاء بما يخالف الدين وما عليه جماعة المسلمين فإن الكلام فيه يرجع إلى ما تقدم بمعنى أنه يجب ردعه ورده إلى الدين وبيان أخطائه والهيمنة عليه بكافة الطرق الرادعة له — وإما أن يكون عن هوى فى نفس المغتاب فترجع الغيبة إلى الحقد والحسد وخاصة إذا كانت عن سبب دنيوى فهى حرام بالكتاب والسنة والإجماع ويدخل فى الكلام الغمز والهمز واللمز أيضا .

والغيبة كما تكون حراما فى مواطن قد تكون واجبة فى مواطن أخرى . (اجعل دليلك فى كل شىء حتى فى الغيبة : الكتاب والسنة والإجماع فلا تخطىء أبدا وتنجو عند الله تعالى . والناس) .

والنميمة التى هى عبارة عن السعى بين الناس بالفساد بكلام مبالغ فيه أو غير مبالغ وهى من الفتنة التى جعلها الله تعالى أشد من القتل فهى حرام بالكتاب والسنة والإجماع والكلام فيها يرجع إلى سابقه وفى هذا القدر كفاية ومن أراد الزيادة فعليه بمحله فالكلام فيه مبسوط هناك .

وأما الكلام فى المخالفين المارقين من الدين الخارجين على الكتاب والسنة . إجماع المسلمين فحسبنا فيهم ودليلنا عليهم كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين — فإن جعلنا أنهم يكتمون معانى الآيات التى نصبها الحق عز وجل دلائل على وجوده وعظيم قدرته وآثار صفاته فقد قال تعالى فيهم (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) — وهذا أكبر دليل على جواز لعنهم . وإن جعلنا أنهم يأخذون بالمتشابه ويؤولونه بحسب أهوائهم فحسبنا وصف الله عز وجل لهم قال تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) قال تعالى (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) . وإن جعلناهم خارجين عن الدين فقد قال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم) . وإن جعلناهم لا يتمسكون إلا بظاهر الآيات والأحاديث فقد قال تعالى فيهم (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) — (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) . وإن جعلناهم خارجين على الإجماع فقد قال تعالى فيهم (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) هذه الآيات وغيرها كلها يأتى بيانها عند ذكر الرد عليهم كل فى بابه وكذا أحاديث السنة وإجماع الأمة إنما ذكرت هذه الآية هنا استشهادا على جواز الكلام فيهم وتبكيتهم كما قال تعالى (أولئك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) صـــدق الله

المظلم وإلى هنا قد انتهينا إلى جواز التكلم فى المارق المفارق المجاهر وحسبنا قول الصادق المصدوق ﷺ فى الحديث المروى عند الأئمة واللفظ لمسلم (اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس) الحديث وحسبنا أن الله تعالى سمى الكافر كافرا والمؤمن مؤمنا وأما ما ورد مما ظاهره خلاف ذلك مما ظنه جهلة الناس بأنه لا يجوز الكلام مطلقا فهو من الجهلة بالكتاب والسنة بمكان ويذكرون الأحاديث والآيات التى لا يعقلون لها معنى ويستدلون بها كقوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا) وكقوله ﷺ (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) الحديث وغير ذلك كثير مما نبينه إن شاء الله تعالى مع عدم معارضة الآيات والأحاديث بعضها بعضا وأما ما ذكره الأفاضل من جواز الغيبة لمعرف وباقى الشروط الخمس لا غير فهو مأخوذ من الكتاب والسنة كما نبهنا عليه سابقا وسيأتى بيان كل إن شاء الله تعالى وقد عرفت هنا أن الغيبة جائزة فى المجاهرين بالخروج على الدين بنص الكتاب والسنة وانهم ليس لهم من الإسلام إلا ما عصمهم به الإسلام وفى الحقيقة أنهم يريدون الطعن فى الإسلام ويكذبون القرآن وينسبون التقصير لسيد المرسلين فى البيان اضلالا منهم عن الحق وزيغا منهم عن الطريق المستقيم جعلوا الدين ستارا والدعوة باسمه شعارا لنيل أغراضهم الشخصية فالكاشف لستارهم الممزق لشعارهم المجاهر ببيان اضلالهم الرامى بها فى وجوههم لا شك أنه مأجور من الله تعالى بنص الكتاب والسنة وإليك البيان والله المستعان .

ويتلخص مما تقدم أن الكلام فى الناس على قسمين : قدح ومدح ولا ثالث لهما ، كما هى سنة الله تعالى فى خلقه وفى المشاهد لكل إنسان

قادح ومادح ، وقد جرت العادة أن المادح لايمدح شخصا إلا إذا كان و
مقابل ما ظهر منه مما يمتدح به وعليه عادة على حسب مدارك المادح
وشعوره ومبادئه سواء كان من قبيل الإحسان إليه أو إلى غيره ويجه
المادح أو فيه الإستعداد لقبول ذلك قال تعالى (الله يجتبي إليه من يشاء
ويهدى إليه من ينيب) أى إلى المجتبى والمنيب . من جعل الله فيه الإستعداد
لقبول المجتبى .

وأما القدح فيكون على نقيض ذلك على خط مستقيم . بمعنى أنه
لا يرغب ذلك ولا يميل إليه وليس فيه الإستعداد لكل ما ذكر فيكون على
مبادىء من قال تعالى فيهم (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين)
فهكذا سنته تبارك وتعالى فى خلقه وبمقتضى حكمته العالية جعل للخير
أهلا ودعاة حولهم ، وللشر أهلا ودعاة حولهم .

وهناك منهم أفراد جهلة لا يفرقون بين الخير والشر ، يتناولون الناس
بألسنتهم بدون علم ولا معرفة وهم ما جاء فيهم الوعيد فى بيانه ﷺ ، وهل
يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم ، وفى الحديث أن
موسى عليه السلام قال : (يارب امنع عنى ألسنة الناس) فقال (ياموسى
هذا شيء لم أختره لنفسى فكيف أختاره لأحد من عبادى) وفى البخارى
عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى
، يشتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ، ويكذبنى وما ينبغى له أما شتمه
فقوله إن لى ولدا ؟ أما تكذيبه فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى ، فهكذا حال
من يجهل ويتخبط فى الأمور خبط عشواء .

أما أهل العلم والمعرفة فانهم يبحثون عن الحق ويعرفونه ويتلمسون طرائقه أين هى ؟ فإذا ما وجدوها التزموا أهلها وركنوا إلى جانبهم فيكونون قد عملوا بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، اعرف الحق تعرف أهله ، فالحق لايعرف بالرجال بل يعرف الرجال بالحق والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل السابع

فى حكمة وجود الهدى والضلال والمعارضات بين الأفراد والجماعات ما بقيت الدنيا إلى أن تقوم الساعة

لا يخفى على من له أدنى نظر وأقل تأمل فى آى الكتاب الحكيم والسنة المطهرة — أن مبدع الكائنات عز وجل جعل الموجودات على حالتين بمقتضى كماله ولا نطيل هنا لأنا سنوضحه عند بيان أول حقيقة أوجد الله منها وبها جميع الحقائق بعد باب معرفته عز وجل . ولنذكر بصدد ما نحن فيه قول الله تعالى — (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) .

ولا يخفى أنه تعالى حين لفت نظر ابليس عليه اللعنه إلى عظيم قدرته وبديع صنعته وأنه المنفرد بالجمع بين الضددين بقوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) إذ اللعين نظر إلى ظاهر الصورة التى رأى تطوراتها وعمى عن أنه تعالى على كل شىء قدير فقال ، لما يريد ، وفيم أن السجود للصورة سجود لغير الله ؟! ولا ينبغى السجود إلا له تعالى ،

وهكذا كل من ينشأ على مبدأ اللعين لا ينظر إلا إلى ظاهر الصور وينسى آثار صفات الحق عز وجل وهي الآيات الكونية ولكن الكريم الحليم لم يتركه هملا بل لفت نظره إلى حكمة تكوينه للموجودات وخاصة أنه لم يوجد من أهل الخطاب وقتئذ إلا ابليس والملائكة وذلك هو التكوين الثاني . إذ خلق جلت قدرته بصفة الرحمة عالم الملائكة من النور . وخلق بصفة الغضب عالم الجان من النار .

وأبان جل شأنه لذلك المنكر صلاحية قدرته جل وعز للجمع بين الضددين بالإيجاد بصفة الرحمة والغضب في صورة واحدة فقال عز من قائل (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) أي بصفتي أي صفة الرحمة وصفة الغضب على ما قرره المحققون . ولا يعقل إلا هذا المعنى لأنه جل وعلا منزه عن مشابهة الحوادث ، ولأنه عليه اللعنة لم يكفر لعدم السجود فحسب بل جحد آثار صفات الحق عز وجل فامتنع عن السجود ، لأننا لو قلنا أنه كفر لعدم السجود فقط لحكمنا أيضا على آدم بذلك لأن صيغة الطلب للاثنين واحدة . الأول قال له افعل والثاني عليه الصلاة والسلام . قال له لا تفعل وهناك فرق بين الأمرين . أما الأول فلأنه نظر إلى الظاهر فقط وهي مراعاة الصور المحسوسة مع احضار القوة الفكرية فكان رده رد متأمل عارف عالم بحقيقة ما هو مأمور به . ولكنه جحد آثار صفات الحق وأنكر عليه بقوله (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) . وأما الثاني عليه السلام فأقبل على ضد الطلب بدون علم ولا اختيار ولا تفكر فيما أقدم عليه لسبق المقدور عليه فكان ذلك منه نسيانا .

ولعله قد ظهر لك الفرق بين الأمرين . ومن هنا يظهر لك أن كل منكر لآيات الله فى خلقه منكر لآثار صفاته جل شأنه ومن ذلك تعلم أن كل من خرج على الإجماع والسنة والكتاب جعل نظرته لأولياء الله والصالحين من عباده كنظرة ابليس لآدم عليه السلام إذ يتصور أعمى البصيرة أن هؤلاء الأولياء لهم أفعال غير أفعال الله تعالى ، فمن قصدهم فقد قصد غير الله فيكون عنده مشركا ولايدرى الجهول بأن هذا الولى مظهر من مظاهر آثار صفات الحق عز وجل وأن الفاعل فى كل شىء هو الله تعالى إذا شاء جل ذكره اكرام الطالب والمطلوب فعل ، وقد شاء حقا وفعل لأن الكرامة من خصائص الولى ولايعرف إلا بها كما أن المعجزة من خصائص النبى ولا يعرف إلا بها وهى المرادة فى قوله تعالى (وماكان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) — والكرامة آية من آيات الله تعالى التى يجريها على يد عبده الصالح كذلك — وهل يدرى المنكرمن الذى خلق الولى ؟.

ومن الذى خصه بالكرامة ورفع ذكره بها ؟ ومن الذى يوجدها ويجريها له . ومن الذى وجه من فيه حسن العقيدة باكرام الله تعالى لهذا العبد الصالح حتى يتوجه إليه ؟ أليس الله هو الفاعل فى كل شىء وأن الولى مورد من موارد رحمة الحق عز وجل وفيه وعنده تظهر آيات الله تعالى فى خلقه لخلقه كما جعل جل شأنه لكل شىء مصدرا وقال تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها) — (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون) — أليس العالم مصدرا من مصادره تعالى ؟ وأليس الصانع مصدرا ؟ وأليس الكبريت مصدرا ؟ وأليس كل ما فى أفراد الجماد والنبات والحيوان مصدرا ؟ وهل لو توجه أحد إلى شىء من ذلك يكون مشركا ؟ ولو

أنكرها وجحدها يكون مؤمنا؟ وكيف هذا مع قوله جل ذكره (واسألوا الله من فضله) قال: العلامة . البيضاوى . فى تفسيره أى مما قربه إليكم وجعله بين أيديكم اهـ: أى من كل شىء فى الأفعال والأقوال والاعتقاد لأن الله هو الفاعل فى كل شىء . وسنوفى المقام إن شاء الله فى محله عند ذكر الولى والكرامه وحياة الموجودات وخاصة الآدمى ثم نرجع فنقول:

إن الله سبحانه وتعالى جمع بين الضددين فى مخلوق واحد وهو الذى بث منه خلقا كثيرا — وفى كل فرد من أفراد الخلق قد بث فيه كذلك والجمع بين الضددين كالعلم والجهل . والحلم والغضب والقوة والضعف، والإحسان والإساءة والكرم والبخل وهكذا .

ولا يخفى عليك أيضا أنه قد جعل منه المؤمن والكافر والشقى والسعيد . والكل متناسل من آدم عليه السلام فسلسلة السعداء لاتنقطع أبدا بين الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من العلماء العاملين والأولياء والصالحين وعامة المؤمنين . وكل من هو إلى الإيمان أقرب وبين الأشقياء من المنافقين الذين هم فى الدرك الأسفل من النار إلى من هو أقرب منهم إلى الإيمان إلى الطبيعيين الذين يقولون بعدم وجود الإله وما بينهم من المشركين والكفار ومن يزعم أن مع الله إلها آخر . وهؤلاء هم أعوان إبليس وجنوده فى الأرض، ليتحقق لك قوله تعالى:

(ومن كل شىء خلقنا زوجين) وإن هذا الفريق هو فريق الشر والضلال والإلحاد والغفلة عن الحق وأهله قال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون

بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) يقابل هذا قوله تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وكذا المجازاة على الأعمال فلأهل الشر قال تعالى فى الجزاء على السيئة (فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاءً بما كانوا بآياتنا يجحدون) — ولأهل الخير قال تعالى فى الجزاء على الحسنة — (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) — فقد بان لك أن الموجودات من بنى آدم على حالتين كما قررنا فأهل الضلال موجودون إلى أن تقوم الساعة . وأهل الحق موجودون كذلك . والكل سلالة آبائهم وأجدادهم وما هم عليه فى العقيدة والأعمال والجزاء ولا يزالون كذلك إلى أن تقوم الساعة ، وكلما دعا أهل الضلال إلى الضلالة فأهل الحق يقومون فى وجوههم ويردونهم عن طغيانهم لقوله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » . وهكذا جميع الأعمال على حالتين والجزاء عليهما كذلك وحالهما فى الدنيا ومآلهما فى الآخرة كذلك فريق فى الجنة وفريق فى السعير . (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها) . (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها) .

وإليك أجمع آية فى كتاب الله العزيز (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

ولنرجع إلى بدء التشريع فى وقت تأسيسه على يد خير الأنبياء

والمرسلين . صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين من جعل الله تعالى شرعه باقيا إلى يوم الدين وإن مرحلته لم تنقطع ولا تزال قائمة أبد الآبدين وقد جعل الله تعالى جميع الأنبياء والمرسلين نوابا عن حضرته ﷺ في البلاغ لجميع الإنس والجن -- قال تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري . قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) . ومع هذا كان يعارض ويقاوم ويعادى بكافة الطرق الشيطانية المخالفة لدعوته الشريفة . فمنهم من آمن ومنهم من كفر وطالما تمنى ﷺ أن يؤمن به الخلق أجمعون حتى لا يفلت منهم أحد إلى النار وكان حريصا على ذلك كل الحرص فسلاه الحق عز وجل وأسّاه باخوانه الأنبياء والمرسلين من قبل بقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) .

هذا ولا يخفى عليك إن الله تعالى كما جعل للخير دعاة إليه من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم جعل للشر دعاة إليه من إبليس وأتباعه من لدن آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة -- فالشيطان وأتباعه ضد دعوة الأنبياء والمرسلين والعلماء العاملين والأتقياء والصالحين بنص كتاب رب العالمين .

قال تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه

ليكونوا من أصحاب السعير الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون) -- وقال تعالى — (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) — (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولوكانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

فقد عرفت أن بنى آدم على حالتين قولا وفعلا وعقيدة كما تقدم فحزب الله هم الأنبياء والمرسلون ومن على قدمهم من الخلق المهتدين وحزب الشيطان وأولياؤه وجنوده هم من الخلق الضالين . ولاتنس أن إبليس سيتبرأ من حزبه يوم القيامة بعد اعترافه بأنه كان فى الدنيا داعية للشر قال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلاتلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) .

ففى مثل هذه الآية وما يشاكلها واضح الدلالة على أن إبليس هو مصدر الشر وبه يعمل وإليه يدعو وعلى ما قدمنا من أن سلالة الأطهار من الأصل

الطاهر لحفظ الله تعالى لهم أصلا وفرعا قال تعالى (أن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) وقال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) وان سلالة الأشرار هم من أصل الشر فمنه خلقوا وبه يعملون وإليه يدعون قال تعالى (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) وقال تعالى (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لايخرج إلا نكدا) — وقال تعالى — (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) .

فقد ظهر لك أن فرق الضلال والكفر والأشراك ذرية بعضها من بعض وأهل الإيمان والتقوى والصلاح والإستقامة ذرية بعضها من بعض .

« ملاحظـــة »

لعلك عرفت مما قدمنا أن جانب الخير من الخلق هم سلالة الأطهار من لدن آدم إلى وقتنا هذا بل إلى أن تقوم الساعة وأنهم أهل التقوى وأهل الكرم والسماحة والخير والبركة وقد جعلهم الله تعالى الوسائل فى كل هذا وخلقهم لهذا ولهذا يعملون وبه وفيه يتنجون وبهم ومنهم وفيهم تظهر آثار صفات الحق عز وجل فى الخير والهدى . وأن جانب الشر من الخلق هم سلالة الأشرار من لدن آدم إلى وقتنا هذا ، بل إلى أن تقوم الساعة وهم على عكس سلالة الأطهار على خط مستقيم ، كما نطق به صريح الآيات فى الكتاب الحكيم ، وصحيح السنة . فأصبح ذلك التسلسل فى الجانبين قاعدة إلهية ، وسنة ربانية ، من سنن التكوين ،

(ولن تجد لسنة الله تبديلا) . (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وأخرج أصحاب الصحاح عن النبي ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أى فطرة الله على التوحيد والملة السليمة .

وعلى هذا الأصل تكون نسبة الفرق والطوائف والنحل إلى أصولها التي انحدرت منها في كل عصر وجيل كما هو مشاهد بالحس والعيان ، فليس ذلك بتأثير الطبع ولا اقتضاء للعادة ولا بتولد المسببات من أسبابها بل بالوضع الإلهي القائم على محض المشيئة . والإختيار (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) الآية : فبان لك أن ربك هو الفعال لما يريد وله الحكم في التغيير والتنويع ، لا سلطان لعادة ولا قهر لطبيعة ، (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) فسبحانه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي فقد يخرج من الصالح صالحا ومن الفاسد صالحا قال تعالى لإبراهيم عليه السلام (إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) ومن المؤمن كافرا كنوح وابنه . وقد يخرج من الكافر موحدا عارفا كآزر وابنه إبراهيم عليه الصلاة والسلام — وذلك لبيان اقتداره على الإبداع والإختراع ولإظهار كال علمه بمكوناته سواء كان من عقبة مباشرة أو من سلالة ولو عن بعد كما قال تعالى — (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) — وكما قال تعالى — (وكان أبوهما صالحا) وهو الجد السابع أو العاشر كما قرره المحققون ولاتذهب بك بعيدا فهاكم ابن تيمية لجده الخامس المحدث

العظيم صاحب منتقى الاخبار وابن عبد الوهاب أبوه العالم العظيم الصالح الذى حاول هو وأخوه ردعه ورده عن نشر الضلالة فلم يستطيعا . لحكم يعلمها الحكيم العليم بخلقه وهذا لا يقدح فى أن الطريق الواضح والجارى كثيرا فى العادة المألوفة والسنة الجارية أن الضال لا يلد إلا ضالا بل قد يكون أعرق من أبيه فى الشر وإليك قول من قال موريا بمن كان أخبث من أبيه .

كان فى الحارة كلب أقلق الناس عواه
خلف الملعون جروا فاق فى الخبث أباه

وهاك أصل المثل العربى : قال حنظلة يحاور ابنه مرة يارب ترزق الناس أولادا حسانا وأنا ترزقنى شيطانا . فقال مرة لأبيه : أما تعلم أن من العصى العصية والحية لا تلد إلا حوية فأرسلت مثلا .

فمن هنا تعرف أن أهل الضلال يرثون الضلالة خبيثا عن خبيث وضالا عن ضال .

ولكن قد يكون فى نسب الأطهار دخل يضاد ذلك كما قال تعالى لسيدنا إبراهيم (قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) وقال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) يرشد تعالى عباده إلى أن الطبيعة والعادة لا تأثير لها على الفاعل المختار فقد ينشىء جل وعلا من الصالح فاسدا ومن الفاسد صالحا — وقد يكون غير ذلك كنتكوبن عيسى عليه السلام .

عن ماء مريم أم عن نفخ جبرين
سواء كالبشر المخلوق من طين

هذا وإن كنت ترى فى المكونات على خلاف العادة والطبيعة كمن لا يلد وقد يكون الرجل والمرأة بصحة جيدة .

وأما ما به العادة والطبيعة فى المولدات الثلاث من الحيوان والنبات والجماد فلا تلد هذه الأجناس إلا جنسها — سنة الله تعالى فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا — ولقد أحسن من قال :

وهل تلد الأشياء إلا شكلها
أو تحمل الأشجار غير حملها

لو قيل شاة ولدت إنسانا
أو حب بر مثمر جلبانا
أو نخلة قد حملت رمانا
أو طائر قد أفرخ الحيتانا
لقيل هذا المحال

قال تعالى (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض) .

وقال ﷺ لكريمته السيدة فاطمة الزهراء (ما أحسن شىء المرأة يا فاطمة ؟ فقالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل . فربت عليها وقال : ذرية بعضها من بعض) .

ولا غرابة فى أن أهل الشر هم من نسل أهل الشر وأهل الخير والتوفيق هم من نسل أهل الخير والتوفيق وهذا مستفاد من وضع القرآن الكريم وبيان سنة سيد المرسلين من أن القرآن لم يخرج عن دائرة ثلاث : (١) الدعوة إلى الله تعالى وهو التوحيد (٢) والمعاملة مع الله تعالى ومع خلقه بما أرشد عباده إليه وحثهم على النظر فيه والجد والإستقامة فى الطريق الموصلة إليه تعالى وحذر من كل ما هو بخلاف ذلك (٣) والقصص وهو عظة الحاضرين بأحوال الماضين .

هذا ما اشتمل عليه القرآن الكريم وبيان السنة المطهرة فإذا نظرت وتأملت وجدت أن كل قسم منها يشتمل على حالتين الأمر بالتوحيد والتحذير من ضده والأمر بحسن المعاملة والتحذير من ضده والقصص بالأمر فيه باتباع سنن من وفقهم الله والتحذير من ضده .

وها هو القرآن الكريم الذى أنزله الموجد للعاملين به ولغير العاملين به ولما كان لانبى بعد رسوله محمد ﷺ ولا كتاب بعد القرآن جعله صالحا موافقا لجميع من يوجد من بنى الإنسان إلى أن تقوم الساعة . وبين لهم فيه جميع أحكام ما يستحدثونه فى تجددات أزمانهم وبين لهم فيه الأحكام العامة والخاصة بل قد جعل فيه ما يشمل كل شىء من نوعه كما قال تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) . وقال تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) — (ويخلق ما لا تعلمون) — (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) — وغير ذلك كثير فى كل شىء بحسبه ونوعه . وكفانا قوله تعالى (تبيانا لكل شىء) — (وتفصيل كل

شيء) – (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) – على ما سنبينه إن شاء الله فيما يأتى فى محله .

ولا يخفى عليك أنه ما من حادثة تحدث فى مستقبل الزمان إلا وقد أجرى الله تعالى فى بنى الإنسان فى زمن حضرته ﷺ ما يشابهها لينزل فى شأنها قرآنا صالحا لكل ما هو على شاكلتها ليكون أصلا يرجع إليه ما بقيت الدنيا ويصبح الرد إليها متعينا وكذلك بيان السنة وقد وفق الله تعالى من عاصروا رسوله ﷺ أو من عاصروا من عاصر رسوله ﷺ إلى بيان ذلك وهم المعنيون فى قوله تعالى (وأولوا الأمر منهم) فالمنزل جل شأنه والمبين ﷺ ومن وفقهم الله لفهم ذلك ومن اتبعهم إلى أبد الآبدين هم أهل الهداية والتوفيق ومن خالفهم دهر الداهرين هم أهل الضلالة والتفريق .

ومن هنا أيضا تعرف أن القرآن الكريم ما أنزل إلا بأسباب قد أجراها خالق الموجودات ليبنى عليها ويرجع إليها ما دامت الأرض والسموات فما نزل لأهل الهداية فهو لأهل الهداية ومن على مبادئهم وما نزل لأهل الشقاوة فهو لأهل الشقاوة ومن على مبادئهم وعلى هذا قالوا إن السنة والقرآن يؤخذ منهما بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فمثلا قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم) الآية نزلت لسبب خاص ولكن الحكم عام مستمد إلى يوم القيامة فى كل ما أشبه سبب النزول.

وليس من هذا قول أهل الزيغ والخوارج ومن على مبادئهم بأن ما نزل بشأن من جعلوا مع الله إلها آخر من عبدة الملائكة والجن والكواكب والأصنام ينطبق على زوار الأنبياء والأولياء والصالحين

فهذا قول فاسد ورأى باطل لأن الفرق كبير بين العبادة والزيارة إذ طوائف الكفر والاشراك كانوا يعبدون هؤلاء على مختلف عقائدهم فيهم وعبادتهم لهم على ما بين فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة . وأما الزائر فإنه لا يرجو إلا الخير والبركة ممن أظهر الله فيهم آثار صفاته المغايرة للعادة البشرية . فاتجاه الزائر إنما هو لله تعالى وصفاته على ما بين فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة . وأما انهم يخلطون فى كلام الله تعالى ويحرفون الكلم عن مواضعه ويريدون أن يبدلوا كلام الله ويقولون فيما نزل فى بيان المشركين وحال الخوارج والضالين ويجعلونه فى شأن الزائرين فهذا من الإلحاد بمكان لأنه كيف يتفق الشرك مع قوله تعالى — (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . ومع قوله ﷺ . (والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى) — رواه البخارى فى الجنائز — وقوله : (لا تجتمع أمتى على الضلالة) — رواه أحمد فى مسنده والطبرانى .

فهؤلاء الخوارج يرمون البرآء من المؤمنين بالشرك وهم لا يعرفون أى معنى للشرك بل هم إلى الشرك أقرب ولو رأيت حالهم مع من يمدونهم بالمال لحكمت عليهم أنهم هم المشركون حقا لأنهم يعملون لمناقضة صريح الآى القرآنية والسنة النبوية وإجماع خيار الأمة فى مقابل عرض زائل يأكلون منه كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ولا يبالون بمعارضة كل ذلك فانظر أى الفريقين أقرب إلى الشرك تراهم أحيانا يأخذون بظاهر القرآن وأحيانا يؤولونه على حسب ما يُسوّل لهم الشيطان (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) فهم يتلونون بلون المقامات كأسلافهم المارقين .

هذا وانا نرجع بك إلى ما قدمنا من أن القرآن الكريم بين حال المؤمنين والكافرين والوسط بينهم من المنافقين . والمنافقون على قسمين قسم منهم إلى الكفر أقرب وهم من قال تعالى فيهم — (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) — وقسم إلى الإيمان أقرب وهم : من قال تعالى فيهم - (ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) .

وقدقدمنا أن الأصل فيمن نزل بسببهم القرآن على قسمين مؤمن وكافر ومن على شاكلته الكفار كأهل الزيغ والضلال والإلحاد والمارقين والخوارج وجميع أهل الفرق الضالة ممن بينا وسنبين . وقال تعالى — (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) — وقال تعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وأن يروا كل آية لا يؤمنون بها) — (ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا) — (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) .

فالمتبادر من هذه الآيات القرآنية الصالحة لكل زمان . النازلة بالأسباب أنها شاملة لجميع فرق الزيغ والضلال وأهل الأهواء من الخوارج وغيرهم على ما حققه وخرجه كبار أئمة التفسير . راجع تفسير الفخر

والقرطبي وغيرهما . وأنهم لايزالون كذلك وقد جاء فى السنة المطهرة ما بين ذلك وها هو ما رواه أبو داود فى سننه من حديث معاوية ابن أبى سفيان عن النبي ﷺ قال « ألا ان من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة وإنه سيخرج من أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لايبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » قال القرطبي فى تفسيره للقرآن الكريم فى الجزء الرابع عند قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا) صحيفة ١٦٠ بعد الحديث المستدل به السالف الذكر — فقد ظهر لنا أن أصول الفرق هى الحرورية — والقدرية — والجهمية — والمرجئة — والرافضة — والجبرية — وقال بعض أهل العلم أصل الفرق الضالة هذه الفرق الست — وقد انقسمت كل فرقة منها إلى اثنتى عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة . قد بينها فرقة فرقة آخرها اهـ قرطبي .

الفصل الثامن

فى المناظرة وحكمتها

أعلم أن أقوى المعلومات مطلقا ماكان عن نظر واستدلال ضرورة أن لا تصديق إلا بعد تصور ، ولماكان الأمر كذلك ، لفت الله نظر عباده إلى هذا ، إذ وردت المناظرة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وأولها ماكان بين الله وملائكته عليهم السلام فى شأن آدم عليه السلام وبها ألزم الله تعالى ملائكته الحجة لمّا قال تعالى :

(إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) كان مرادهم أن خلق مثل هذا المخلوق فى نظرهم غير ظاهر الحكمة لهم ، ولما كان الحكيم الخبير لا يفعل شيئا بلا حكمة ، أجابهم سبحانه وتعالى بقوله (إنى أعلم ما لا تعلمون) .

أى إنى لما كنت عالما بكل المعلومات ، قد علمت أن فى خلق آدم وتكوينه حكمة لاتعلمونها أنتم ولا شك أن هذا هو المناظرة .

واعلم أن منشأها طلب الوقوف على الحكمة لا مطلق الجدل إذ هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون — هذا . وأما ماكان من اللعين مع الله تعالى فكان محاورة وجدالا بغير حق وقد أظهر الله تعالى بها حجته على الملائكة ، وأبان فضل آدم عليه السلام عليهم بأن أظهر علمه وجعله معلما لهم فلم يسعهم إلا أن يقولوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) وذلك محض الإستدلال ، ومع نوح عليه السلام قد حكى الله تعالى عن الكفار قولهم (يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) ومعلوم أن تلك المجادلة ماكانت فى تفاصيل الأحكام الشرعية بل كانت فى التوحيد والنبوة — فالمجادلة فى نصرة الحق فى هذا العلم هى حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام — وإبراهيم عليه الصلاة والسلام مع نفسه فى قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين) — وهذا هو الإستدلال بالتغير على الحدوث — ثم ان الله تعالى قد امتدح ماكان عن نظر واستدلال ونسبه لنفسه تعالى فقال جل شأنه (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) ومع أبيه بقوله (يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر

ولا يغنى عنك شيئا) ومع قومه تارة بالقول — وأخرى بالفعل — ومع ملك زمانه (إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لايهدى القوم الظالمين) وبحث إبراهيم هذا — فى المبدأ — والنبوة والمعاد — لتعلم من هذا أن الأول قبل كل شىء إقامة البرهان على توحيد الله تعالى ووجوب معرفته وهو أول واجب على كل مكلف — والثانى إقامة البرهان على التوحيد مع النبوة — والثالث منهم عليهم الصلاة والسلام إقامة البرهان على التوحيد والنبوة والمعاد — وهكذا جميع الأنبياء والمرسلين نهجوا منهجا واحدا فى هذه الثلاث لا غير وهى المقصودة من الحياتين الدنيا والآخرة — فهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء المعصومين وأنهم كما استفادوها من عقولهم قد توارثوها عن أسلافهم الطاهرين هذا .

وقد عرفت أن إقامة البراهين فى وجه المعارضين ماكانت إلا فى ثلاثة شبه التى هى أول شبه اللعين قد تشعب منها السبع الشبه — آنفة الذكر وأما سيدنا محمد ﷺ فما بعث إلا وكل فساد فى الأرض قد بلغ منتهاه وتشعبت أنواع الضلال فى الإلهيات والنبوآت والمعاد ، فكان اشتغاله بالدلائل على التوحيد — والنبوة والمعاد بدرجة من الوضوح لايحتاج معها إلى التطويل ، والقرآن مملوء بذلك .

ولقدكان عليه الصلاة والسلام مبتلى بجميع الكفار — الدهرية الذين يقولون — (وما يهلكنا إلا الدهر) وقد أبطل الله تعالى قولهم بأنواع

الدلائل ــ والذين ينكرون القادر المختار والله تعالى أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات والجماد والحيوان مع اشتراك الكل فى الطباع وتأثيرات الأفلاك وذلك يدل على وجود القادر المختار ــ والذين أثبتوا مع الله تعالى شريكا وذلك الشريك إما علوى أو سفلى ــ أما الشريك العلوى فمثل من جعل الكواكب مؤثرة والله تعالى أبطله بدليل الخليل ــ (فلما جن عليه الليل) . وأما الشريك السفلى فمثل النصارى : قالوا : بإلهية عيسى عليه السلام ــ واليهود : قالوا : بإلهية عزيز عليه السلام ــ وعبدة الأوثان قالوا بإلهية : الأوثان ــ والله تعالى أكثر من الدلائل على فساد قولهم :

والذين طعنوا فى النبوة على قسمين ــ قسم منهم طعن فى أصل النبوة وهم الذين حكى الله تعالى عنهم قوله (أبعث الله بشرا رسولا) والثانى الذين سلموا أصل النبوة وطعنوا فى نبوة محمد ﷺ (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) والقرآن مملوء بالرد عليهم .

والذين طعنوا فى الحشر والنشر والله تعالى أورد على صحة ذلك وعلى ابطال قول المنكرين أنواعا كثيرة من الدلائل مثل قوله تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم) الآية . والذين طعنوا فى التكليف تارة بأنه لا فائدة فيه ــ وتارة بأن الحق هو الجبر .

وقد رد الله تعالى عليهم فى ذلك بأنواع الدلائل فقد تلخص لك من هنا ومن جميع ما تقدم معرفة أصول المعاندين الماضين بأن هؤلاء على قسمين ــ أهل ديانات مطلقا مثل المجوس ــ واليهود ــ والنصارى ــ والمسلمين ــ وأهل الأهواء والآراء ــ مثل الفلاسفة والدهرية والصابئة

وعبدة الكواكب والأوثان والبراهمة وهؤلاء لاتنضبط لهم فرق فى عدد معلوم — وأما أهل الديانات فقد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها (فقد افترقت المجوس إلى سبعين فرقة واليهود إلى احدى وسبعين فرقة — والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة — والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة والناجية أبدا فى الفرقة واحـــدة — إذ الحق من القضيتين المتقابلتين على شرائع التقابل إلا وأن تقتسما الصدق والكذب فيكون الحق فى إحداهما دون الأخرى — ومن المحال الحكم على المتخاصمين المتضادين فى أصول المعقولات بأنهما محقان صادقان .

وإذاكان الحق فى كل مسألة عقلية واحدا فالحق فى جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة — وإنما عرفنا هذا بالسمع وعنه أخبر التنزيل فى قوله عز وجل (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) .

وأخبر النبى ﷺ (ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة والباقون هلكى) قيل من الناجية — قال أهل السنة والجماعة — قيل ومن أهل السنة والجماعة — قال ما أنا عليه اليوم وأصحابى وقال ﷺ (لانزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة) وقال ﷺ (لاتجتمع أمتى على الضلالة) هذا وقد أفرد كثير من أجلة العلماء كتبا بين فيها الفرق بكافة أنواعها بأحسن تبيان — كالفرق بين الفرق — والفصل — والملل والنحل — وغيرها من الكتب فراجع إن شئت .

هذا وبحوله وقوته تعالى — سأبين لك من هو الذى على الحق فى الأمة الإسلامية وبه تعرف بالضرورة غيرها من جميع الفرق إذ هى التى

ينتهى إليها خيرية جميع الأمم إذ قال مبدع الكائنات خالق الأرضين والسموات ومن فيهن ومن عليهن فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ـ الذى ما فرط فيه من شيء قال سبحانه وتعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقال الصادق المصدوق ﷺ (أنتم خير الأمم يوم القيامة) ومن هم خير الخيار ـ ومن هم الآن الذين هم على ما كان عليه ﷺ وأصحابه رضى الله تعالى عنهم وهم الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه المجيد الذى أنزله تبيانا لكل شيء وتفصيلا لكل شيء .

وإنى لا أدعك حيران فى بيان الفرقة الناجية التى هى على الحق إذ الكل يدعيها ولا برهان لهم تثبت به حقيقة دعواهم وإن لم يكن فى هذا الكتاب إلا هذا الباب لكنى ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المبطلون .

وذلك ستراه فيما يأتى من الباب الثانى فى تفصيل الرد عليهم فى معرفة الحق عز وجل بالقدر الممكن للبشر كما شرعه تعالى على لسان الأنبياء والمرسلين وخاصة سيد العالمين عليهم الصلاة والسلام أجمعين وما يليه من الأبواب إن شاء الله تعالى .

الفصل التاسع
فى أن الفرع كالأصل

قد عرفت مما قدمنا لك أن ابن تيمية هو الذى جمع شتات أقوال الخوارج وغيرهم من الملحدين ودونها رسائل وتلقاها عنه تلاميذه الذين فتنوا بحبه لنشأتهم على ذلك واستعدادهم له ووسعوا فيها الضلالات وكلما

رأوا المسلمين يعملون عملا من الأعمال التى لم تكن فى زمن حضرته ﷺ خالفوا هم فيها إجماع المسلمين وقالوا بدعتها آخذين بأقوال هؤلاء الضالين عامدين إلى استدلالات واهية لا أصل لها من الكتاب والسنة موهمين على البسطاء بأنها معقولة وبأنها صريح الكتاب والسنة . وتلك الإستدلالات تجعل الكتاب والسنة يتعارضان ولا مبالاة بذلك ولم يفهموا أن منزل الكتاب ومرسل البشير النذير وخالق من يعملون بذلك ومبدع المستحدثات ما بقيت الدنيا وأمر بالعمل بهما إنما هو إله واحد عالم بكل ذلك جعل كتابه وسنة نبيه صالحين لكل زمان وقد قيض من عباده رجالا ذكرهم فى كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم وأمر بإتباعهم وعصمهم من الخطأ وحفظهم من الزلل فى كل ما يبينوه لعباده وأثنى عليهم فى محكم كتابه وبين أوصافهم ﷺ كما بين أوصاف المارقين والملحدين وحذرنا من اتباعهم .

ومن العجيب أنك ترى المبطلين لقصر عقولهم وطمس بصائرهم عن إدراك ذلك كله يقولون فى كل المستحدثات التى وفق الله تعالى لها رجالا قاموا فيها بالبيان والإرشاد مالم يكن فى زمنه ﷺ : أنه بدعة . وياليتهم يعطونها حق البدعة الحسنة بل لتوغلهم فى مهمات الضلال يقولون إن جميع البدع ضلالات .

فانظر يا أخى إلى أنهم لانطباق جهلهم يحرفون الكلم عن مواضعه وياليتهم فيما يجهلون يسألون أهل الذكر امتثالا لقول ربهم جل وعز بل يعتقدون أنهم أكبر وأوسع علما من أئمة الدين . يقولون إن هذه الأشياء التى لم تكن فى زمنه ﷺ بدعة وضلالة وإذا قلنا إن كل مالم يكن فى

زمنه ﷺ بدعة . لزم أن تكون أحوال الناس ومخترعاتهم بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار على ما يزعمون .

هذه نبذة من أفكارهم العالية التى ترتفع على أفكار البهائم . وإن قالوا إن مرادنا من البدع ما فى الأحكام والأعمال الشرعية قلنا لهم لم يكن فى زمنه ﷺ نقط المصحف ولاشكله ولا طبعه ولا قسيمة الزواج ولاعلم النحو والصرف واللغة والهندسة والتاريخ والجبر والكيميا والطبيعة والجغرافية والبلاغة بأقسامها الثلاثة والمنطق والتوحيد والفلسفة الإسلامية والفقه الإسلامى والفلك والهيئة والميقات والعروض والقافية والوضع والرسم وآداب البحث وغيرها من مختلف الفنون والعلوم . إذن فالاشتغال بذلك كله بدعة وضلالة مع أنها وسائل لفهم كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين المشتملان عليها ولا يعقل التفهم فيهما إلا بها . ويقولون أيضا ان الأحكام الشرعية هى ماكانت فى زمن حضرته ﷺ حتى لايجوز القياس فى الدين مستدلين بقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) ويقولون لوكان القياس بعده ﷺ كان لابد أن يكون لإظهار حكم لم يكن معلوما فكان القياس موجبا لكمال ما لم يكن كاملا فى زمنه ﷺ . فنقول لهم إن المراد باكمال الدين تحقيق قواعد العقائد وتبيين قواعد الإجتهاد والتوقيت على أصول الشرائع وهذا لا ينافى وقوع الإجتهاد وتخريج الأحكام بعده ﷺ على ما فى البيضاوى وبعض حواشيه .

قال : الإمام أبو حنيفة والشافعى ان ما يستحدثه الناس بتوفيق الله لهم فى أزمنتهم لا نهاية له . إذن : لابد فى الرجوع فى كل جزئية من

مستحدثاتهم إلى أصل كلى فى الدين يندرج تحته ذلك الجزئى وإلا لما صح الرد إليه وإلى بيان الرسول ﷺ . وكذا لم يكن لمصداق قوله ﷺ أصل « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » وكيف تكون السنة المستحدثة حسنة إلا ولها أصل فى الدين حتى يؤجر عليها فاعلها فتراهم يقولون بضلالاتهم وأباطيلهم ويؤيدونها بالأدلة من الكتاب والسنة بما لا يعقلون له معنى بل بينه وبين تفهمهم منافرة تامة لأنها تصطدم مع غيرها من الآيات والأحاديث التى تعارض تفهماتهم ويكون ذلك مدعاة لوجود التضاد فى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى قال الله فيها « قرآنا عربيا غير ذى عوج » وفى حقه ﷺ « وما ينطق عن الهوى » فالله العالم بموجوداته وما يكونون عليه وما يحدثونه فى أزمنتهم الذى سن لهم القوانين التى يسيرون عليها وتكون فيها المصلحة تامة عامة لهم — لم يوجد فيها التضاد ولا المعارضة بل لابد أن يكون بين الجميع والمجموع والأفراد والجزئيات فى كل الأمور والأحوال تمام الوفاق حتى يكون ذلك الإيجاد على أتم نظام وأحسن ترتيب .

ونقول لهم أيضا ان الله الذى بيده ملكوت كل شىء والفعال فى كل شىء جعل أعمال العباد ومستحدثاتهم ومبتكرات أفعالهم لا تخرج عما تضمنه القرآن الكريم حتى إذا ما تنازعوا فى أمر مستحدث يرجعون فيه إلى القرآن فيجدون أصل الأخذ به وعموم الخطاب يرشد إليه .

وكذا فى بيانه ﷺ ويكون أمر عقلاء الأمة فيه بإجماعهم على أن عموم اللفظ يتناوله وأصل الحكم يشمله وأنه سنة حسنة وبدعة يرضى الله تعالى عنها ومن هنا يتعين حسن الرد إلى الكتاب والسنة والإجماع .

فإنك تراهم بمقتضى تشريع الحكيم العليم وبمقتضى حكمة وجود الضلال مع الهوى مستمرين إلى يوم القيامة على ما قدمنا ينظرون فى الآية والحديث فيجلى لهم الحق واضحا وأهل الضلال لطمس بصائرهم يفهمون عكس الحق وفهم أهله ويمدهم الشيطان بوحيه وينصرهم بحزبه ويحوم لهم بأن هذا هو الحق وغيرهم على الباطل فيضلون ضلالا بعيدا ويرتبكون ولا يهتدون سبيلا وإذا رمى بها أهل الحق فى وجوههم تراهم يزدادون حيرة وارتباكا ويحاولون التأول فيها بلا جدوى فلا يفلحون وبذلك يتحقق فيهم قول الله تعالى « ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين ».

قال العلامة البيضاوى وما ذاك إلا اشعار بالحدوث والتجدد وتسجيل بأن العلم بكون المثل حقا هو هدى وبيان وبأن الجهل بوجه إيرادى ذلك المثل والإنكار لحسن مورده ضلال وفسوق فمن هنا تعرف أن الضالين يجهلون المقصود من الآيات والأحاديث فيجعلونها أدلة على أقاويلهم وتزيينا لأباطيلهم وتشجيعا لمن يضلونهم عن الحق.

هذا وإنى أذكر لك مثلا حتى لا تظن أنى متحامل على الخوارج بدون دليل أو أنى طاعن فيهم بدون برهان فأقول إن من كتاباتهم وتفهماتهم وما هو شائع على ألسنتهم وألسنة تابعيهم أنهم يقولون أنها من القرآن كما فى قولهم فى معنى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ذكرها الله فى كتابه العزيز سبع مرات وما هو إلا مستو بمعنى مستقر بذاته على عرشه ولا يحيدون عن هذا المعنى ولم ينظروا إلى الآيات الأخرى التى تعارض أفهامهم كقوله تعالى : إن الله لغنى عن العالمين — إذ كيف يكون غنيا

وهو محتاج إلى العرش وفى قوله تعالى : ليس كمثله شيء — وكيف هذا والعرش يحمل نوعا من الملائكة وغيرهم فيكون الله معهم على هذا الفهم وكقوله تعالى : وكبره تكبيرا — أى لانهاية لذلك وأظنهم لا يعلمون أن العرش مخلوق ومحدود وكيف يكون الله فوقه ويكون ذلك المخلوق حاملا له فإذا ضيقت عليهم فى البحث والشرح يقولون لا نعلمه يثبتون وينفون فى آن واحد كمن يقول : إن الرجل فى الدار ولا أعلم !! كيف يثبت أنه فى الدار ولا يعلم هكذا يقولون فى كل شيء يعجزون عن الإجابة عنه كقولهم إن لله يدا ورجلا وعينا وجسما من صفات الحوادث أخذا من ظاهر الآيات التى جاءت فى القرآن فنقول لهم إن هذه صفات للحق عز وجل كما عليه بيان سيد المرسلين وفهم الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء العاملين فإذا ضيقت عليهم يقولون هذا صريح كلام رب العالمين وله ذلك ولكن لا نعلمه . ويقولون أيضا فى قوله تعالى — أأمنتم من فى السماء — فيرجعون الضمير المستتر إلى الله تعالى ولا يخافون معارضة الآيات الأخر لقوله تعالى : ليس كمثله شيء — وإن الله غنى عن العالمين — لا يبالون بالخجل والكسوف واصفرار وجوههم عند إلزامهم الحجة وذلك ناشيء عن عـــدم الشعور والإحساس رغبة فى الظهور وارتفاع الشأن ولو بالباطل والحرام .

ولست أدرى على فهمهم السخيف هذا أين كان الله قبل خلق السموات والعرش ؟ وإن من أحقر ما ترى من التعبيرات فى قول ابن تيمية فى حديث النزول أنه تعالى ينزل نزولا حسيا كنزول الحادث من أعلا إلى أسفل كما سيتضح لك فى الرد عليه إن شاء الله تعالى فى هذه المسألة .

وإليك مثلا آخر فى قوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فإنهم يقولون بعدم وصول الثواب من الغير إلى الميت ولم يفطنوا إلى قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) وهذا دعاء من غير جنس الآدميين . وأن الله تعالى أخبر عنه أنه يقبل وينفع وكذا قوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان) فأخبر الله تعالى أن دعاء اللاحق للسابق مقبول وينفع وإليك تشريعه ﷺ من شق الجريدة نصفين ووضع كل نصف على قبر فى الحديث المروى فى الصحيحين وغيرهما (يعذبان وما يعذبان فى كبير) الحديث . وهكذا حالهم فى الضلال ونشأتهم عليه . فلا تجد لهم مبدءا فى المخالفة إلا وأصله هكذا لايهتدون فيه إلى الحق ولا إلى طريق مستقيم — ويقولون فى حضرته ﷺ أنه بشر مثلنا من كل الوجوة بنص ظاهر الآيات لايعرفون لخصوصياته الشريفة التى لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء والمرسلين سبيلا . ويقولون ان الموت عبارة عن العدم الذى لا حساسية معه ولا إدراك ولا شعور ومن مات فقد انعدم فهم كأنهم لم يقرأوا القرآن فهم من مصداق قول الصادق المصدوق ﷺ (يقرأون القرآن لايتجاوز تراقيهم) الحديث . أى لا يصل إلى قلوبهم فلا يفهمون معناه مع أن صريح القرآن يقول ان الكافر حى فى قبره وهم يقولون على سيد العالمين مات وانتهى ولا ينفع ولا يحس ولا يعرف أمته بعد . على ما بينا فى معنى الموت الذى فصله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز تفصيلا وينكرون أيضا كرامات الأولياء ، ويقولون أنها تعارض سنن التكوين جهلا منهم وعمى . مع أن الله عز وجل

بين فى كتابه العزيز اكرامه لأوليائه وهم نيام وهم أحياء يمشون على وجه الأرض وهم أموات فى قبورهم لقد صدق رسول الله ﷺ فى بيانه كما سيأتى فى بيان كل فى محله وينكرون التوسل والوسيلة وهكذا فى جميع الآيات التى نصبها الحق عز وجل دلائل على معرفته وبديع صنعته ولم ينظروا إليها . فهم مندرجون تحت قوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ولهذا يستحقون الوعيد الشديد الذى أوعده الحق عز وجل لمن هو على شاكلتهم فى قوله تعالى (قال رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فإنك إذا نظرت إلى أقوالهم تجدهم لا يؤمنون إلا ببعض الكتاب ويكفرون ببعض فهم يقرون أمهات الأحكام وينكرون جزئياتها المندرجة تحت تلك الكليات وتعرف هذا من قولهم وفهمهم فى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية . فهم يرون الجزئيات المندرجة تحت تلك الكليات بدعة مع أنها قد جاءت فى بيانه الشريف ﷺ ولا يخفى عليك أن جميع شبههم هى شبه إبليس اللعين التى دأب عليها الناس من أهل الضلال من قبلهم من لدن آدم إلى وقتنا هذا بل ويستمر هذا إلى يوم القيامة لحكمة وجود الضلال والهدى مستمرين ما بقيت الدنيا . هذا وبتوفيقه تعالى رددنا عليها واحدة واحدة والله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وإن تعجب فعجب قول المتأخر منهم كقول أولهم إذ أنهم على مبدأ واحد وهى المخالفة لإجماع المسلمين ولا اهتمام لهم إلا بالزيارة للنبى ﷺ وآل بيته من الأولياء الصالحين رضى الله تعالى عنهم أجمعين ويضمون إليها كل

مخالف لإجماع المسلمين ويسمون كل من يقوم بشيء من ذلك مشـــركا - وما هي كتبهم المطبوعة الآن التي ساعدوهم على طبعها ونشرها وأغدقوا عليهم الأموال المعارضون للدين الإســلامي في مبدئه وهم ألد أعدائه المستعمرون الآن .

فيقولون في طعنهم إن زيارة النبي والأولياء كعبادة الأصنام ويستدلون بقول الله تعالى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فيقيس الزائر للولي على عابد الصنم ولايقول بها إلا كل غر أخرق . إذ القياس على ما قرره علماء الأصول شرطه أن يكون الفرع مشتركا مع الأصل في علة الحكم وقياسهم زيارة الولي على عبدة الأصنام قياس مع الفارق — يقولون بهذا القياس في الزيارة ويحرمونها في قياس الطواف حول الضريح على الطواف حول الكعبة مع أن أصل علة الحكم واحدة حول الكعبة للبركة وكذا حول الضريح ويحرمون تقبيل الضريح مقرين تقبيل الحجر الأسود مع أن تقبيل الحجر عبادة وما عداه عادة وهي سنته تعالى التي جعلها خالق المعاني والصور علامة على الحب وإلا حرم علينا تقبيل الأولاد والأزواج والأحباب وما أظن قول الشاعر العربي إلا ردا على هؤلاء وهو :

أمر على الديار ديار ســلمى
فألثم ذا الجــدار وذا الجــدارا
وما حب الديار شــغفن قلبي
ولـكن حب من سـكن الديارا

وحب الأولياء نافع . لأن المرء يحشر مع من أحب . وأولياء الله

تعالى هم عباده الذين قال فيهم (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ولا يزال عبدى يتقرب إلى بأزيد مما افترضته عليه حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ورجلا فبى يسمع ويبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه) الحديث فقد منح الله تعالى عباده هؤلاء تلك المنح التى منها استجابة دعائهم وتحقيق مطالبهم لأنفسهم أو لغيرهم . وفى الحديث الشريف (رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره فى قسمه) الحديث . فأين الأصنام من هؤلاء .

على أن الزائر للولى يزوره لأنه من أحباء الله تعالى وهو لا يغفل عن ان الله وحده الفاعل الذى لا استقلال لمخلوق يفعل دون فعله فأين عباد الأصنام من هذا الذى يتوسل إلى الله بنعم الله ؟ إذ التوســـل بنعم الله إلى الله جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة فلا سبيل إلى إنكار ذلك .

على أن التوسل قد ثبت فى الدين الإسلامى . حتى بالبهائم . فى باب صلاة الإستسقاء . وهو لا يخفى على جاهل — ثم لماذا أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ؟ هل كان ذلك السجود لشخص آدم ؟ كلا . إنه لم يكن إلا لما منحه الله تعالى من نعمة الروح . قال تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) . وفى قوله تعالى (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أكبر برهان على التوسل ، وإلا فلماذا لم يفعل الله

ما أراد بدون معونة الملائكة ؟ ! ومن البرهان على جواز التوسل حتى بالغائب المرجو بجيئه المجزوم بقبوله عند الله تعالى قوله عز من قائل (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) . فلم يعب الحق سبحانه عليهم التوسل . إنما عابهم فى عدم الإيمان به :

وأظنهم يقولون بجواز التوسل بالأحياء . وأما الأموات فقد انقطعت صلتهم بأهل الدنيا . تلك العقيدة الضالة التى تعارض صريح القرآن الذى فيه أن الكافر حى فى قبره أحيا من حياة الدنيا قال تعالى (وان الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) . ولذا لما يرى ذلك الكافر يقول (ياليتنى قدمت لحياتى) فهى الحياة الحقة الواسعة وما أظن أن عطاء الله الكريم لعبده فى الدنيا قد سلبه اياه فى الآخرة فلا يستجيب له فى الآخرة !! ولا أظن ذلك بعد قوله تعالى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) بل لا يقول به أحد . ويجهل أن حياة الإنسان الأخرى أقوى من حياته الأولى . وهو فى الآخرة أقرب إلى ربه منه فى الأولى وهو يعلم بأحوال أهل الدنيا و يعرف زائره ولابد أن يجيبه و يكرمه بالدعاء له رجاء أن يحقق الله مطلوبه والله تعالى أخبر أنه يستجيب له . وليس من الكرم أن يسلبه ما أولاه من النعم . وكل ذلك بلا شك لا يكون إلا وفق ما عنده تبارك وتعالى ولا استقلال لمخلوق بفعل حيا كان أو ميتا دون فعل الله تعالى وقد وسعنا وفصلنا كل شىء فى محله وسيأتى إن شاء الله .

ومن أهم إنكارهم تشنيعهم على الموالد التى جاء بها القرآن والسنة وما أجمع عليها علماء المسلمين إلا لذلك وقد أفردت لها بابا استوعب كل شيء فيه وسيأتى إن شاء الله — وأيضا إنكارهم على المحمل الذى كان مسببا لنكبة الوهابية . راجع تاريخ مصر . وقد أفردت له بابا أيضا . وما أجمع علماء المسلمين على جواز شيء إلا وله أصل فى الدين على ما سيتضح لك فى محله إن شاء الله . ومن أهم إنكارهم اعتراضهم على النذر للأولياء لأنه فى عقيدتهم لغير الله تعالى بقياس من ينذر بمن يعبد من دون الله وهذه لا شك أنها عقيدة الضالين وأما عقيدة المؤمنين فإن النذر فى مقابل نعمة . وهى الكرامة أو الحب . وصاحب النعمة هو الله تعالى فيكون النذر له تعالى وإن كان باسم من جعله الله تعالى مظهرا لتلك النعمة كما سمى الله تعالى الكثير من موجوداته بأسماء لا تنصرف إلا إليها والمراد هو سبحانه وتعالى وكما قال ﷺ (مسجدى هذا) . وفى الحديث القدسى (عبدى لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه) الحديث .

وللكاتبين الآن فى الجرائد والمؤلفين لرسائلهم والمحاضرين لهم فى الإذاعات ينشرون تلك المبادىء الخاطئة المخالفة كما عليه إجماع المسلمين وبتوفيقه تعالى قد وفيت المقام فى كل مخالفاتهم بالردود عليهم بالأدلة العقلية التى لا يستطيعون ردها ولا يجدون نقضها بحوله وقوته تعالى المستفادة من الأدلة النقلية . الكتاب . والسنة . والإجماع . والقياس . والإستنباط . وبها إن شاء الله تعالى أحملهم على الرجوع إلى الحق

والصواب مالم يكن أحدهم غلبت عليه شقوته فيكون من قبيل قوله تعالى (ومن يضلل الله فما له من هاد) .

وأما من جعل الله تعالى فيه القبول والإستعداد للخير فيكون من قبيل قوله تعالى (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) .

ومن أعجب الأمور التى تستفز نفوس العقلاء أنهم يأتون بالأباطيل الدالة على استغراقهم فى الجهل أو التمويه أو التضليل على البسطاء من المتعلمين وغير المتعلمين فى ضلالاتهم التى خرجوا بها عن إجماع المسلمين ومرقوا بها من الدين . ويقولون : هذا ما عليه إجماع المسلمين سلفا وخلفا وهذا منهم كذب محض وزور وبهتان لأنهم قد أخذوها ، من قول أهل الحق الذين يردون به عليهم بعد بيان البرهان والدليل القاطع على ما يقررونه ولهم الحق فى ذلك وبه يقولون . لأن لهم على إجماعهم البراهين المحققة سلفا وخلفا وما عرف ذلك إلا عند قولهم فى المتشابه الذى رأوا أهل السلف فوضوا العلم فيه إلى الله تعالى . والخلف قالوا هذه أمثلة تقريبية للعقول البشرية كاليد بالنسبة له جل وعلا . والعين . والرجل . والنزول . والمجىء فأولوا فيه . وقد اتفق أهل الحل والعقد على أن السلف من صدر الصحابة إلى الخمسماية سنة ، والخلف من ذلك الحين إلى مالا نهاية فى كل زمان بحسبه هذا .

وهم أين سلفهم : وخلفهم . أما سلفهم فكانوا لا يستطيعون الظهور مع أهل الحق الحريصين عليه الذين كانوا لم تخل منهم بقعة من بقاع

الأرض قائمين عليه إلى السبعماية والثمان والعشرين سنة حتى بدأ الضلال المقابل للحق فى الظهور بما كان مخفيا من صدر الصحابة إلى ذلك الحين وقد قوبل أهل هذا الضلال بما أزهق باطلهم وأحزاهم فى الدنيا قبل الآخرة كما لا يخفى على من له أدنى إطلاع . وعلى هذا التقدير السابق المتفق عليه من خير الأمة الإسلامية . ليس لهم سلف وحيث كان كذلك فأيضا ليس لهم خلف . فكيف يضللون البرآء من عباد الله بقولتهم هذه الشنيعة . ولا سلف لهم إلا ما كان مخفيا من الضلال طوال مدة السلف . ولا خلف لهم الا من تراهم الآن ينعقون بتلك المخالفات التى يشققون ويفرقون بها بين المسلمين الذين هم على الفطرة السليمة (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين) .

ومن أغرب أمرهم فى البدعة

ومما تستنكره العقول من أمرهم — أنهم يقولون فى كل شىء لم يكن فى عهده ﷺ : انه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار !! وهذا القول ظاهر البطلان : لأن البدعة تنقسم إلى خمسة أقسام فمنها ما هو واجب كتعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعة وغير ذلك من العلوم والفنون والصناعات . ومنها ما هو مندوب كتصنيف كتب العلم . وبناء المدارس . والحصون وغير ذلك . ومنها المباح كالتوسع فى المآكل والملابس وغير ذلك . ومنها المحرم والمكروه ، وهو ما ليس له أصل فى الدين .

ومع حكمهم هذا على كل مالم يكن فى زمنه ﷺ تراهم لايشكرون المستحدث من المخترعات بجميع أنواعها : فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

وإنه لايجهل عارف ولاينكر عاقل ولايغفل من له قلب يعى . أن مبدع الكائنات جل وعلا أحدث ما نرى و العاديات من الموجودات التى لم تكن فى زمنه ﷺ وقد جاء القرآن الكريم مشتملا على بيانها من مخترعات و الصناعات وغيرها من كل أنواع المبتكرات .

فكيف لايكون كذلك فى الدين وخاصة بعد علمهم بقوله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) وقوله تعالى (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) وقوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) وقوله تعالى (ويخلق ما لا تعلمون) وقوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله) وقوله تعالى (وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل) فهذه الآيات تتضمن بيان المحدث المتنوع فى العاديات : من الراديو . والفوتوغرافيا وما هو على شاكلة الفلك كالوابورات وكالقنابل بكافة أنواعها وكالطائرات .

وأما محدث الدين فهو فى الآية الجامعة من قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا بالحق

لما جاءهم) الآية . وإليك قوله الشريف في حديثه الجامع المانع الذى أوتيه ﷺ من جوامع كلمه الشريف وهو (تحدثون ويحدث لكم) فإذا كان هذا بيان القرآن الكريم والسنة المطهرة فى كل أنواع المحدثات ولا ينكر هذا المحدث فى العاديات إلا الأعمى بصر أو بصيرة فكيف ينكر المحدث فى الدين (ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

ولا ينكر عاقل ما فى قوله تعالى (وآية لهم انا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) والمشاهد أن مثل الفلك المشحون من حاملات المنافع لبنى البشر من جهة إلى أخرى . لم يوجد إلا بعد ، ولكن لما كان محقق الحصول منه تبارك وتعالى لا محالة . عبر عنه جل شأنه أنه حصل بالفعل فى (خلقنا) على يد عباد لم يكونوا وقت ذاك . ولكن بصنعه البديع جل وعلا قد خلق علماء فألهمهم الإبتكار والتوسع فى صنع كل ما هو حاصل الآن على شاكلة (الفلك المشحون) ولا يتصور عاقل أن كل ما أحدث من المحدثات الآن الكونية والفعلية على يد علماء مؤهلين موفقين للقيام بهذا التنويع والتفنن المشاهد المعاين الذى لا ينكر . وغيره كثير من أنواع أفراد المنوعات من المحدثات . وإذا كان كذلك .

فبالأحرى والأجدر أن يخلق تعالى للأمور الكلية الشرعية وجزئياتها المندرجة تحتها من الأمور التى لا يتم الكمال إلا بها . علماء يستنبطون منها ما يكون مندرجا فى أصل علة الحكم ومساويا له فى التشريع ،

وإلا فكيف يسلمون بمحدثات الصناعات ويجحدون ما يحدث فى حكم التشريع وقد جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة . كما جاء بهذا المشاهد المعاين الذى لا سبيل إلى إنكاره . أليس هذا من الترجيح بلا مرجح ؟! بعد أن عرف أصل كل من الدين ولم يظهره الحق عز وجل إلا على يد عباد شاء تبارك وتعالى إيجادهم بعد . كما قال تعالى (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) فقد بين العزيز الحكيم أنه لم يمنع فضله عن عباده فى أى زمان كان — ومن لم يفهم ذلك ويعمل به فقد ضرب الله تعالى له المثل بقوله (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) .

وهذا مما لا يخفى على ذوى العقول الراجحة أن هذا التنويع فى المبدعات التى لم تخرج عن حد الكمال الذى جاء به القرآن الكريم وبيان السنة المطهرة فيكون من أكبر الدلالات على معرفة الصانع جل وعلا الذى جرت العادة فى سنته تبارك وتعالى أنه يقلب الأشياء فى كل الأمور من قالب إلى قالب . ولو جرى الأمر على عدم التجدد فى مستقبل الأزمنة لكان ذلك مخالفا لسنته تبارك وتعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وبهذا المحدث المشاهد المعاين فى موجوداته تبارك وتعالى جاء القرآن العزيز متضمنا لها ومشتملا على كل فرد من أفرادها . فقد جعل لكل شىء منها أصلا وجعل من ذلك الأصل فروعا تتنوع منها أنواع كثيرة . وهذا مما لا سبيل إلى إنكاره .

فكيف لا يكون لأصول الأحكام الشرعية فى كل حكم منها فروع وهى التى سبق لنا التعبير عنها بالجزئيات المندرجة تحت الكليات فى (أكملت لكم دينكم) التى لا ينكرها ويجحدها إلا كل مخالف لا يعرف أصول دينه ولا يفهم لكلام رب العالمين معنى لتفصيله ولا لبيان سيد المرسلين معنى لتبيينه (ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى) (ان فى ذلك لآيات لأولى النهى) وسيأتى الكلام بأوسع من هذا فى البدعة والمبتدعة إن شاء الله تعالى .

الفصل العاشر

فى حكمة تقديم الأدلة العقلية على النقلية

نذكر لك بتوفيقه تعالى حكمة تقديمنا الأدلة العقلية على الأدلة النقلية ، فى الكلام على الضلال وأهله أولا :

لأن الإنسان إذا عرف الضلال ، ويريد العدول عنه ، فإنه لا يرى بعده إلا الحق . وإذا عرف الضالين ومبادئهم فليس بعدهم إلا المهتدون . ولنا فى ذلك أسوة بالحق عز وجل . إذ ابتدأ سبحانه وتعالى فى معرفة توحيده جل شأنه : بالنفى أولا . ثم بالإثبات ثانيا قال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فقد نفى جل شأنه كل باطل ، وأثبت أنه الغنى المفتقر إليه جميع ما عداه . وكذا فى عبادته تعالى أيضا بقوله جل وعلا (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) إذ لا تعقل العبادة وانفراد المعبود بحق بها إلا بعد التخلى عن كل ما سواه .

وكذا أيضا فى جميع حاجيات ابن آدم ومستلزماته الدنيوية ، ألزمه إثبات فاعليته جل وعلا فى كل شىء ، ثم أردفه بابتغائه الوسائل فى كل شىء بحسبها .

قال تعالت عظمته : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) فبين جل شأنه : أنها أى الوسيلة لاتكون إلا بعد التقوى ، وهى عبارة عن ترك الباطل أولا ، وملازمة الإذعان للحق ثانيا .

وعلى هذا جاء بيانه الشريف ﷺ فى السنة المطهرة كما فى حديث الفزارى الذى سيأتى :

ففى هذه الآيات وبيان السنة تمام البيان صحة الإقتداء ، بتقديم الكلام على معرفة الضلال المنفى أولا ، ثم تثبت الحق لأهله ثانيا . كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : الحق لايعرف بالرجال ، « اعرف الحق تعرف أهله » .

ولله الحمد ففى كل ضلالة من الإثنتين والسبعين : ترى الكلام مفتتحا ببيان محوها أولا . وإثبات الحق ثانيا والله يحق الحق ويبطل الباطل . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الحجة البالغة

لا نزاع فى إجماع العقلاء من علماء الأمة سلفا وخلفا . على أن لا طريق إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والإستدلال ، إذ لا تصديق

إلا بعد التصور ، وقد لفت الله نظر عباده إلى ذلك فى كثير من آى الذكر الحكيم ، وفى بيان السنة المطهرة كذلك قال تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) ولا تعقل العبادة إلا بعد الإيمان بوجود المعبود وهو الخالق للكائنات ، وقال تعالى : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) ولا شك أن المراد بقوله تعالى : بالحكمة : أى بالبرهان والحجة . فكانت الدعوة إلى الله تعالى بالحجة والبرهان وهو مأمور بها ﷺ بقوله تعالى : (وجادلهم بالتى هى أحسن) فكان الجدال مأمور به أيضا . ثم انا مأمورون باتباعه ﷺ لقوله تعالى : (فاتبعونى يحببكم الله) ولقوله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) فثبت أننا مأمورون بذلك الجدال ، وقد جاء فى لفت النظر قوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) الآية . وقوله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله تعالى : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) الآية . وقوله تعالى : (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) الآية . وقوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) وقوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات لأولى الألباب) .

وهاك ما أجاب به ﷺ السائل بالبرهان العقلى والقياس : إذ روى فى الصحاح بالسند لأبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى ﷺ فقال : ان امرأتى وضعت غلاما أسود . فقال له هل لك من أبل ؟ .

فقال : نعم . فما ألوانها ؟ قال : حمر .

قال : فهل فيها من أورق ؟ قال : نعم .

قال : فأنى ذلك ؟ قال : عسى أن يكون قد نزعه عرق .

قال : وهذا عسى أن يكون قد نزعه عرق » .

فهذا هو التمسك والإلزام بالقياس وغير ذلك كثير فى الكتاب والسنة فى أن الدليل العقلى مقدم على الدليل النقلى . وهاكم الأثر المشهور عن سيدنا على رضى الله تعالى عنه . السالف الذكر قريبا . ومن لم تطرق الحجة عقله لا يسلبها ولا يصدق بها .

ولو أنى حاججتهم بالقرآن والأحاديث فقط ، كالأفاضل السابقين ، لأولوا معانى الآية إلى ما يفهمونه لطمس بصائرهم ، ولا يسهل علينا التخلص منهم ، ويقول الواحد منهم . أنا مستريح لفهم هذا المعنى فى الآية والآية تعطيه — ولكن — حين ألزمه الحجة بالدليل العقلى ، ويلبسه ، ويصبح موقنا به ، ويصير لزاما عليه ، أن لا يفهم إلا هذا ؟ — أطبق عليه الآية الكريمة فيجزم بها ويرى أنها سيقت لبيان هذا المعنى المراد ، فلا يجد عنها محيصا فيؤمن بآيات ربه — ويفهم أسرار كونه .

هذا والحمد لله تعالى قد وفق الكثير على يدى من طلاب الحق لفهم الحقائق . أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنة . أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

وأما من غلبت عليه شقوته ، وقد جعل الله تعالى على سمعه وبصره

وقلبه أغشية . فمالى به ؟ ! (أفانت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) .

وكذلك لو حاججتهم بالحديث عن رسول الله ﷺ ، لا تخرج بنتيجة أيضا ، لأنه اما أن يطعن فى الحديث من طريق السند أو ينكره أو يؤول معناه ، كما هو شأن امامهم ومتابعيه ، والضال ومقلديه ، ومن على شاكلتهم ممن اتبع هواه ، فلا تنتج فائدة ، بل ربما قال : هذه أدلة ظنية لا توصل إلى اليقين ، أو هذا ما أراه فى معنى هذا الحديث ، ولى رأيى ولك رأيك .

هذا وقد وفقنى الكريم الفياض جل شأنه فى أكبر نضال وقع بينى وبين صنديد من صناديدهم وطال استماعه للأدلة العقلية ، وكنت أضرب له الأمثال بالموجودات المشاهدات لصدق ما أقرره له وكبير الفائدة والبرهان على فساد ما يدعونه ، وإثبات آيات الله تعالى فى الموجودات من الجمادات والنباتات والحيوانات وأسرار الله تعالى فيها . وأوازن له بين كل جزئية من جزئياتها ، وبين بعض أفراد الإنسان الذى هو محل نظر الحق من هذا الخلق ، فلم يستطع دفع هذه الموازنات بأى حال من الأحوال ، فقام بحمد الله تعالى موحدا عارفا بربه عز وجل عارفا بأباطيل الملحدين ، وصرت أراه بعدها زائرا لآل بيت النبى ﷺ الصالحين .

وفى ضربى لهذه الأمثال أسوة بالحق جل وعلا . قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغى . فقد ورد عنه ﷺ أنه لما تلا هذه الآية . قال :

« العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » اهـ : بيضاوى » فنهم مهتد وكثير منهم فاسقون

هذا وقد رأيت جميع من وفقهم الله تعالى للقيام بالرد على هذه الفئات الضالة ، أتوهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التى لا تكاد تحكم إلا بأنها نص فى قطع ألسنتهم . أو تقول : علم الله تعالى ، بأن هؤلاء سيظهرون ، فى وقت كذا ، فى صفات هى كذا ، يدعون كذا ، فجاء بالقرآن كاشفا عن حالهم . وكذا علم حضرته ﷺ النبوة بأنه ستظهر الفرق الضالة التى حدث عنها وعن تعيين الجهات التى تخرج منها وعن مبدأ ظهورها ، فحدث عنهم بما يكشف عن حالهم وبالرد على مفترياتهم ، وبما تبطل به حجتهم . ليحق الله الحق ويبطل الباطل .

ومع ذلك كله تجدهم يكابرون ويؤولون ويحرفون الكلم عن مواضعه ولم يقتنعوا بتلك الردود الكثيرة التى أدلى بها أفاضل علماء الأمة وجها بذاتها فى كل عصر ، ممن لهم القدم الراسخة فى الدين ، ولهم تمام الالمام بسنة سيد المرسلين ، المؤيدين بالسواد الأعظم من خيار الأمة المعصومة من الضلالة ، التى مضى عليها ، وعلى صفوها الذى لم تكدره أية شائبة نحو سبعمائة سنة تقريبا . وقد أتى هذا الجامع لكتب المخالفين وقال بها ، وكان جزاؤه مالاقاه فى الدنيا بدعوى أنه يجدد للأمة أمر دينها بأباطيله محتميا فيمن كتبوا ممن سبقه بما هو أوهى من بيت العنكبوت . وسيظهر لك الحق واضحا وجليا إن شاء الله تعالى .

كان لزاما علىّ ، والأجدر بى ، أن لا أهتم بشأنهم كالكثير ممن لم يعبئوا بهم ، ولم يقيموا لهم وزنا حتى فى الوجود كباقى الفرق الضالة المارقة من

الذين من خلقهم العليم الحكيم لحكم يعلمها هو عز وجل قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

راجع تفاسير الآية تجد كأنها ما نزلت إلا لبيان حالهم وحال من على شاكلتهم وبيان مآلهم قال تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .

وإنى كنت مترددا بادىء ذى بدء لعدة أمور ولكن لما نظرت فيما أكرمنى به الحق عز وجل ، وأفاض على من رحمته الواسعة . بالأدلة العقلية التى لم يسبقنى بفضله تعالى بها سادتنا الأفاضل المتقدمون تلكم الأدلة التى لا يمكن لبشر نقضها ، وهى أقطع فى الحجة والبرهان لهم ، ومحو مفترياتهم من هذا الوجود إن شاء الله تعالى ، حتى لا تقوم لهم بعدها قائمة ، وقد وفقنى وأعاننى على أن أصدع بها الكريم الفياض فأردت أن أنظم نفسى بتوفيقه تعالى فى سلك الأفاضل السابقين رجاء أن أكون فى تعداد العلماء المجاهدين امتثالا لأمر الصادق المصدوق ﷺ وتحقيق أمر الكريم الرحيم وابتغاء رضوان رب العالمين فهو حسبي ونعم الوكيل .

مسألة مهمة

بالتوفيق الإلهى وبنور الإيمان . وحق اليقين . قد جمعت فيها ما تفرق من المعقول والمنقول . وأحصيت ما تبعثر فى أمهات الأبواب وشوارد الفصول فمن ألم بها تكفيه فى صحة الإيمان . وتصرفه عن كل ما فيه خيبة أو خسران .

ولنبدأ لك فيها بعقائد المخالفين . وهى أساس شقوتهم وسبب إنحرافهم وخروجهم عن الحق الصريح . وهى قطب عمود الرحى الذى ترتكز عليه عقائد الموحدين وخروج الضالين المارقين عن إجماع المسلمين — وهى أنهم تارة ينفون نسبة الأفعال للوجودات البتة . وخاصة بنى آدم ومن التجأ إليها فى الأخذ بالأسباب منها . يعدونه مشركا — وتارة يثبتون لها أفعالا مستقلة . ومن التجأ إليها كان مشركا — وتارة يثبتون لها أفعالا تعود على فاعلها وحده لا تتعداه إلى غيره — وتارة يثبتون لها أفعالا تتعداها إلى غيرها وهى حية حياة الدنيا . وأما بعد الموت . فلا . ومن التجأ إليها بعد الموت . فقد أشرك والتجأ إلى غير الله تعالى — وتارة يعتبرون الموت عدما وفناء وانقطاعا عن أهل الدنيا — وتارة يعتبرون ما بعد الموت حياة يسمونها حياة برزخية . لكن أهلها مشغولون بما عملوا قبل الموت . اما نعيم . واما جحيم . وهذا كله جهل بسنن الحق تبارك وتعالى . وما أرشد عباده إليه فى كتابه العزيز .

وأما أهل الحق فيقولون إن الله تعالى قد أثبت لمخلوقاته من نبات وجماد وحيوان وملائكة وكواكب وغيرها . أفعالا وجعلها تبارك وتعالى تؤدى النفع لبنى آدم فى كل ما خلقت له بالتسخير والتوفيق الإلهى لها . وهكذا سنته تعالى فيها أجراه على يد خيرة خلقه وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ليقتدى بهم فى الأخذ بالأسباب واتيان البيوت من أبوابها .

فها هو آدم عليه السلام أبو البشر الذى أسس الأعمال فى كل شىء بالأسباب بتعليم الملائكة له كل شىء فى الأخذ بالأسباب وقد نسج من بعده بنوه على منواله : وبالتوفيق الإلهى والإلهام الرحمانى توسعوا فى تلك الأصول وتفهموا فيما يتنوع فى كل شىء بحسب أصوله وهكذا فى الازدياد إلى مالا نهاية حتى الآن والمستقبل ما بقى الزمان وها هو أول رسول عورض فى معرفة الله تعالى والرسالة . نوح عليه السلام . لما ضاق ذرعا ويئس من إجابة دعوته أمره تعالى بالسفينة فكانت له آية — وصالح عليه السلام . كانت الناقة له آية — وهود عليه السلام . كانت الدعوة له آية — ولوط عليه السلام . كانت الملائكة له آية — وإبراهيم عليه السلام . كان ركونه إلى الله تعالى والبرهان العقلى له آية — وسليمان عليه السلام . كان الريح والملك العظيم له آية — وشعيب عليه السلام . كانت الدعوة له آية — وموسى عليه السلام . كانت العصى له آية — وعيسى عليه السلام . كان أحياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص له آية — وخاتم الأنبياء والمرسلين وسيد العالمين سيدنا محمد ﷺ . بالمؤمنين والنصر العزيز لحضرته والقرآن المجيد آية .

ومن أهم ما تجب معرفته أن الله تعالى قد أسند إلى خلقه الأفعال فى كل شىء بحسبه حتى الشيطان (مأنساه الشيطان ذكر ربه) الاتيان بالدخان للسماء . والسير للجبال والسحاب والجرى للشمس . وكذا اختص سبحانه بعض مخلوقاته بتحقيق المطالب كالوقوف بعرفة والطواف حول الكعبة والقبلة فى صحة الصلاة . وأرشد سبحانه وتعالى عباده

إلى هذه الأسباب لإدراك المطالب بها ومها (واسألوا الله من فضله) . اى بما قربه إليكم وجمله بين أيديكم ولا تنسى أن أنبياءه تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام أسندوا الأعمال للموجودات كما قص تعالى علينا ذلك فى محكم كتابه مما قدمنا وسنبين ولم يغفلوا عن أنه الفاعل المختار بتلك الأسباب ولا ضير فى ذلك بعد قول جبريل عليه السلام واسناده فعل الله تعالى لنفسه (لأهب لك غلاما زكيا) وفى قوله تعالى (فأردت أن أعيبها) وفى قوله تعالى (بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين أخونى) وفى قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام (قال هذا من عمل الشيطان) . وغير ذلك كثير من الآى التى لا يخفى على كل ذى عقل راجح أن فى كل آية من الآيات المتقدمة التى اختص تعالى بها أحبابه معنى يغاير الأخرى . وقد وجه تعالى نظر عباده إلى كل ذلك فى مختلف الآيات البينات الكونية والقرآنية — وخاصة فيما فيه منفعتهم من مصالحهم الشخصية الدينية والدنيوية والأخروية .

وإذا كان تبارك وتعالى اختص بعض أفراد الموجودات التى ينتفع بها بنو آدم وقد خلقها تعالى وسخرها لهم . أفلا يكون الإنسان الذى خلق الله له تلك الأشياء وسخرها لنفعه أولى أن يختصه بالفيوضات والنفحات والبركات وهو أعلى المخلوقات وأكرمها على الله . وإلا فكيف نعرف ولا ننكر مزايا أفراد النبات والحيوان والجماد ولا نعترف بمزايا أكرم مخلوق على الله تعالى . ومما لا ينكره عاقل أن كلا من النبات والجماد والحيوان الذى خلق للإنسان لينتفع به فى حياته الدنيا . قد جعل

تعالى فيه النفع بعد موته فى حياته الأخرى أوسع من نفعه الأول وهذا مما لا شك فيه وقد ضربنا له الأمثال فى غير ما موضع .

ولا يخفى على كل عاقل أن الواضع لفنون الطب هو الحق سبحانه وتعالى على يد أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام وهو لم يخرج عن ارشادهم إلى العقاقير والأخذ من المولدات الثلاث وقد جعل فيها الشفاء لكل من طلبها ويحقق بها رجاء قاصدها كما قص تبارك وتعالى علينا فى كتابه العزيز (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) (زيتونة مباركة) وفى بيانه الشريف ﷺ ما دونه أصحاب السنن والمسانيد فى كتبهم وخصصوا فيها كتب الطب . وهكذا سنة الله تعالى فى خلقه . ونهج الناس عليها . وتوسعوا فيها بالمقارنات والموازنات حتى أصبحت علوما جمة تقصدها ذوى الحاجات من مصادرها وبإرشاد المتخصصين لها وفيها — أفهل من يقصد العقار لحاجته فيه يكون ممن أشرك بالله تعالى ؟ وهل من يتوجه إلى الطبيب المتخصص فى فن من فنونه يكون متوجها لغير الله تعالى : أو مشركا . وهل من يقصد آثار صفات الحق عز وجل فى موجوداته يكون مشركا أو هل من يقصد ما أرشد الله إليه عباده وبين تعالى أن فيه البركة أكثر من غيره وتوجه إليه عبده الذى خلقه له وسخره له يكون متوجها لغير الله تعالى ؟ .

نعم ان هذه عقيدة الضالين الخارجين عن إجماع المسلمين الذين يظنون أن للعباد وخاصة بنى آدم أفعالا مستقلة عن أفعال الله تعالى —

وهى عقيدة كل ضال ظان بالله الظنون وأضلها جهله بمعرفة الواحد المعبود المنفرد بالإبداع فى كل موجود (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) الذى أوجب معرفته تبارك وتعالى على بنى آدم قبل معرفة كل شىء حتى إذا ما عرفه سبحانه وتعالى عرف آثار صفاته التى بها يعرف جل وعلا — إذ هذه الآثار لم تخلق عبثا مجردة خالية عن صفات خالقها . إذ بها يعرف سبحانه وتعالى وبها تظهر أعمال عباده التى ظاهرها لهم لقصر عقولهم عن إدراك حقيقتها وباطنها له عز وجل (والله خلقكم وما تعملون) فهو المنفرد بالإبداع والإيجاد على اختياره كما شاء ويشاء — ومن يقل بغير ذلك فهو على قدم إبليس الذى قال للشافعى رضى الله تعالى عنه : أرأيت من خلق كما اختار وسيركما اختار ثم يقضى إلى النار هل عدل فى ذلك أم جار — فقال رضى الله تعالى عنه — إن كان خلقك كما يختار وسيرك كما يختار فهو الفاعل المختار - فاضمحل إبليس وقال : والله لقد أخرجت بها سبعين ألف عابد من مقام العبودية .

فمن رأى أن للعباد أعمالا مع الله مستقلة . فهو على قدم إبليس ، ومن يعتقد أن الوجود كله به ومنه وإليه وهو الفعال لما يشاء فهو المؤمن الموحد .

على أن الذاهب للولى كالذاهب للمقار أو الطبيب أو إلى أى أثر من آثار صفات الحق عز وجل . وهل الذاهب لهذه الآثار أليس ذاهبا إلى الله تعالى . ومنها تعلم أن النذر لهؤلاء هو لله تعالى لأنه لايكون إلا فى مقابل نعمة فهو لصاحب النعمة . ومن صاحب النعمة غيره تبارك وتعالى ؟

فالنذر وإن كان باسم مصدر النعمة ظاهرا فهو باطنا لمصدرها . كالحج والطواف حول الكعبة وغيرها مما قدمنا .

ومن يقر غير ذلك فهو المشرك الذى لم يميز بين خالقه ومخلوقاته بجعل المخلوق مستقلا كالخالق . فالقائل بذلك هو على قدم غير أهل الإجماع من المؤمنين المسلمين وهو من أحد الفرق التى قدمنا ولا يغرنك كونه ذا لقب أو وسام أو مظهر يغتر الجاهلين . فلن يحيدوا عن قدم الأولين الذين هم على قدم المنشىء الأول للمخالفة والمفارقة .

ولا يغرنك قولهم هذه مسألة خلافية . لأنه لو كان عالما أو عارفا أو متعلما لعرف أن الحق واحد وأهله واحد ولا خلاف فيه . وإنما الخلاف لا ينشأ إلا عن مضاد معارض للحق ولا خلاف بين أهل الحق وإنما من خالفهم وفارق إجماعهم فهو المخالف — ولقد أحسن من قال :

وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر

وإن قال جاهلهم إن الخلاف بين الأئمة الأربع فقد جهل تأسيس دينه وسنن الله فى تكوينه .

إذ مبدع الكائنات جل وعلا العالم بمكوناته بما كان منها وما يكون جعل دينه الخالد ما بقيت الدنيا على ما يتناسب مع عباده — فجعل التشريع على يدى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ مناسبا لكل عامل به ومنه فأجرى التشريع فى الحكم الواحد أنواعا ليسهل على كل آخذ منه ما يصلح له مع الراحة وصار كل من أخذ من ناحية من أنواع التشريع فهو من التشريع .

ولما وفق سبحانه عبادا من عباده لتدوين هذا الدين الخالد لمن سيجيء بعد وبالتوفيق الإلهي قيض أيضا لكل واحد من هؤلاء الأئمة من روى له عن سيد العالمين نوعا من أنواع التشريع فى الحكم الواحد بالطريق الموثوق به الذى ارتضاه له طريقا – وهكذا الإمام الآخر – وهكذا غيره حتى تم جميع ما شرعه ﷺ وبينه لعباد الله تعالى . وصار كل ما دون عنهم هو من بيانه الشريف ولا خلاف فى هذا البيان بل هو بعضه أسهل من بعض لعباد الله تعالى وعلى هذا لا خلاف بين الأئمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ثم بحول الله وقوته وحسن توفيقه الجزء الأول من فيض الوهاب ويليه الجزء الثانى وأوله الباب الثانى فى تفصيل الردود عليهم . ومبدؤها فى الإلهيات .

عبد ربه سليمان

من علماء الأزهر الشريف

ننشر فى ختام هذا الجزء للسيد الأديب الشاعر محمد كامل عبد العظيم يوسف هذه الدرة شاكرين له أدبه وفضله . قال :

هذا حقاً من فيض الوهاب

مولانا الأستاذ الأشهر الشيخ عبد ربه سليمان .

طالعت كتابك ، فألفيته أطروفة فى بابه . دل اسمه على مغزاه ، وأعرب عنوانه عن فحواه ، فلك من الله الشكر .

روح وريحان يروح ويغتدى — ومضاء عزم كالشهاب الموقد
سفر يريك الحق أبلج ناصعاً — فيه الشفاء لغلة القلب الصدى
نبع النبوة فاض بين سطوره — فأضاء منبلجاً بهدى (محمد)
ياكاسى الإسلام حلة سؤدد — (ياعبد ربى) ياشريف المقصد
لله أنت فمكرماتك جمة — كر العفاة لها تروح وتغتدى
بوركت أنت كتبت أبلغ آية — للمسلمين بهمة لم تخمد
ونسخت ما كتب الذين تصايحوا — من ترهات فى الورى لم تحمد
جددت من ذكر الصحابة ما انطوى — ورفعت ذكرك فى عراص الفرقد
وأعدت من عصر النبوة ما مضى — لما أعدت لنا حديث المسجد
فإذا أتيت إلى « الحسين » تحيه — عنى تحية شيق متوجد
والثم تراب القبر وانثر حوله — زهراً ونلك حفاوتى من مسجد
جبريل ثالثكم وعين « محمد » — ترنو إليكم من بقيع الغرقد
لاغرو إن ينكر سناه حاسد — فالشمس تنكرها عيون الأرمد
إنى بلوت الكاتبين جميعهم — فوجدت قرلاً فى الحضيض الأوهد
من حاد عن قصد فإلك قاصد — أو شك فى دين فإلك مهتد
تأبى النعيم ملطخاً بمذلة — وترى مقام السوء عاراً للغد
عش ، للحديث وللنبى وآله — تبنى ، وغيرك للمخازى يرتدى

تم